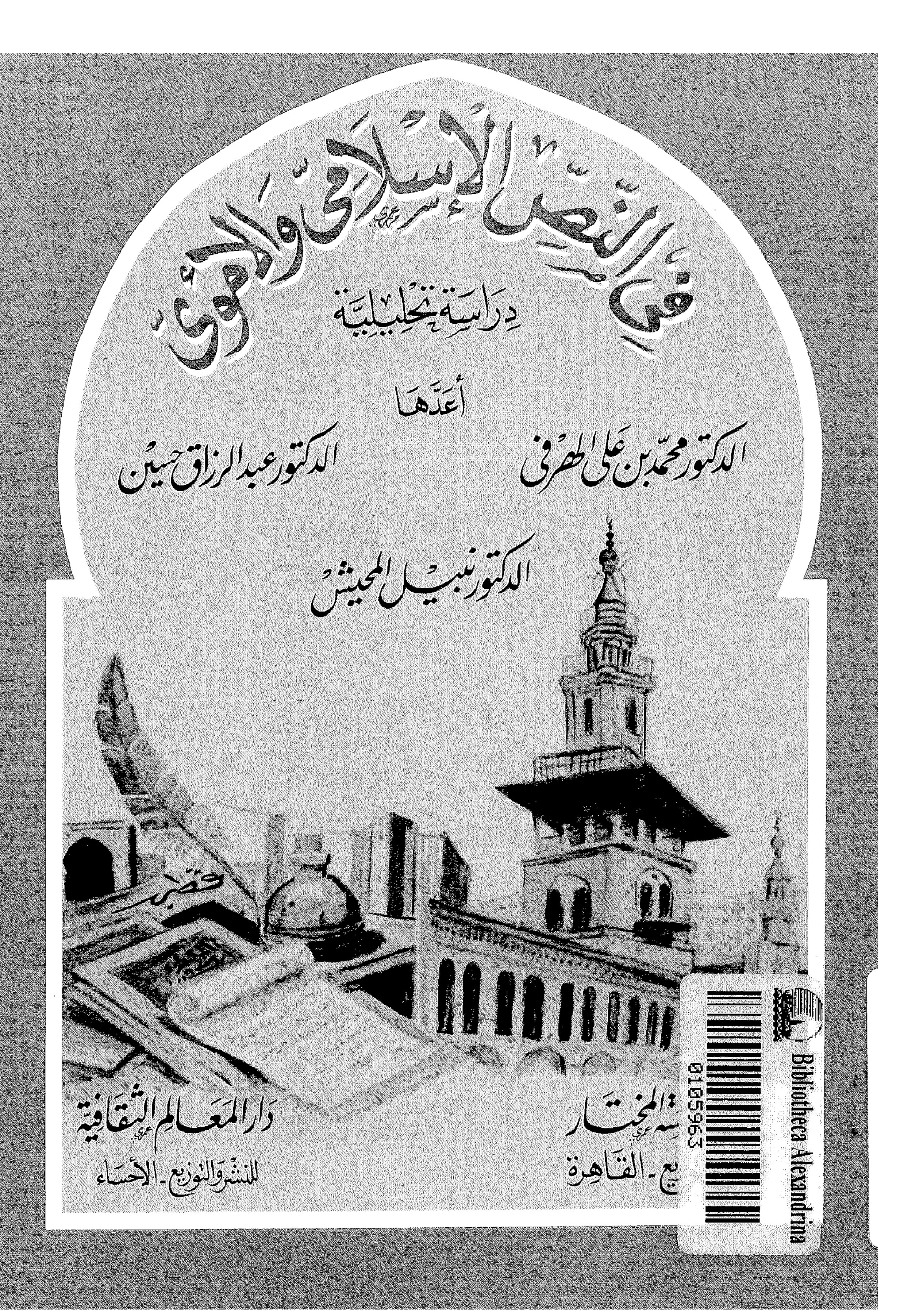

في النص الإسلامي والأموي
دراسة تحليلية
أعدها
الدكتور محمد بن علي الهرفي
الدكتور عبد الرزاق حسين
الدكتور نبيل المحيش
دار المعالم الثقافية
للنشر والتوزيع - الأحساء
المختار
القاهرة
Bibliotheca Alexandrina
01059663




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع - القاهرة

٦٥ شارع النزهة - مصر الجديدة

تليفون و فاكس : ٢٩٠١٥٨٣

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١١٨٣١ لسنة ١٩٩٨

الترقيم الدولى : 977-5283-25-6

دار

المعالم الثقافية

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الأحساء - الهفوف

شارع الجامعة

ص.ب : ١٦١٣ الأحساء ٣١٩٨٢

هاتف : ٥٨٧٠٦٢٣ - ٥٨٦٢٠٦١

مقدمـــة

إن استكشاف جـوانب الرحابـة ، فى النص الأدبى الإسلامى ، واستجـلاء مواطن الجمال والإبداع ، واستكناه الأغوار والأعماق ، والسياحة بين هذه الآثار الأدبية الفريدة والمتميزة ، هى مهمة هذه الدراسة الأدبية النقدية التحليلية .

إلى جـانـب مهمات أخرى لاتغيب عن بـال الـدارس والقارىء ، فمحـاولة التعـرف على النص الأدبى ، والدخول إلى فنائه ، إنما تتم من خـلال مصادقة النص ، من خلال الألفة التى تجمعك به ، والثقة التى تنشأ عن ذلك ، فيلقى إليك بسِّره ودُرِّه .

ولا يعنى أن هذه الدراسة تعتمد استنطـاق النص فقط ، دون الاستعانة بكل المساعدات التى تعيننا فى فهمه ، ورضاءة جوانبه ، فكل مايفيد من علوم وفنون تعطى ولو بصيصاً من نور ، لن نقف حـائلاً بينهـا وبين النص ، مع إيماننا بأن الظـواهـر الخارجيـة تظل فى إطار محدوديـة استعمالها مفيـدة ، أما إذا سيطـرت على الدرس النقـدى فإنها تتحـول إلى آلية صمّاء ، تتسـاوى جميع النصوص جيدها ورديئها أمام تحكيمها .

وإذا كان النص الأدبى الإسـلامى هو وريث الشعـر الجاهلى فى بعض مفاهيمـه وقيمه ، فإن هذا النص استطـاع من خلال الأبعاد الإسلامية الجديـدة ، أن يحلّق فى الآفاق ، فى استثمار عجيب لكل مـا أعطاه الإسـلام للعقل والفكـر والقلب والروح ، من حـريـة وانطلاق وتفكـر وتدبـر ولعلك - أخى القارىء- تستكشف معنا فى هـذه الدراسة القـدرات الهائلة فى التعبير والتصوير ، وتلمس بعقلك وفكرك مدى تميز نصنا الأدبى الإسلامى ، وإمكاناته التى سُخرت فى تنميـة فنية لم تنعـزل عن الحياة وإنما كـانت خيطاً من نسيجهـا ، فالأدب الإسـلامى التحم بقضايا الفرد والمجتمع دون أن يتخلى عن رفعة الفن ، وسمو البناء ، وعظمة الأداء .

وهذه القراءة التحليلية لنصوص الأدب فى العصر الإسلامى والأموى التى نقدمها فى هذا الكتاب ، لم تقف عند النصوص المشهورة ، وإنما وسّعنا الدائرة ، والتقطنا نصوصاً لبعض أدباء العصر من المشهورين وغير المشهورين تبين عن هذا الشموخ الفنى، من خلال بناء تصويرى ، لايهيم بك وراء الأساطير والغموض ، وإنما يُـجَـمِّلُ لك الواقع من خلال إمكانـاته ، ويبدى عن التحام شديد بالبيئة ، واستخلاص مفيد للتجربة الحياتية والثقافية .

وأخيراً – أخي القارىء– فإن الـدراسة بين يـديك ، وإننا لعلى ثقـة بأنها سترد على أسئلة كثيرة حامت فى أفق النقد العربى ، عن مدى استجابة أدبنا لسنن الإبداع والتجديد ، ومجالات تجلياته ، وأبعاد قدراته .

وقـد حرصنـا فى هـذا العمل المشترك على تعدد الـرؤى ، حتى نفتح عـدداً من النوافـذ ، لانافـذة واحدة تطل منها على النص . ولـذلك لم يكن هناك إتفاق على اختيـار النصوص ، أو طريقة التحليل ، وإنما كـان لكل حريته وطريقته وأسلـوبه من هنا فقد كان للـدكتور محمد بن على الهرفى نصيبه فى هذا الـدرس النقدى ، فاختار لنا عـدداً من النصوص الشعرية والنثـرية قام بتحليلها ، وهى: « قصيدة حسان بن ثابـت فى مدح الرسول ﷺ ، وقصيدة لأبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه الخمسة ، وقصيدة لجران العود فى هجاء زوجتيه ، وقصيدة غزلية لجميل بن معمر، أمـــا النثر فقـد تحدث عن : خطبة الـرسول فى حجـــة الوداع ، وخطبـة للإمـام على رضي الله عنه بعد حادثة التحكيم ، وخطبة لزياد ابن أبيه عندما تولى إمرة البصرة » .

أمـــا الدكتور عبد الرزاق حسين فكان نصيبه ستة نصوص ثلاثة نصـــوص شعرية هى : « نصيحة أب لعبدة بن الطبيب ، وشكوى عمال الزكـاة للراعى النميرى ، ووصف الديار لعروة بن أذينة » وثلاثة نصوص نثرية ، هى :« رسالة فى القضاء لعمر بن الخطاب ، وشباب مكتهلون خطبة لأبى حمزة الشارى ، وتأبين فرغانة بنت أوس بن حجر للأحنف بن قيس » .

وقد شـــارك الدكتـور نبيل المحيش بتحليل ثلاثـة نصوص هي : « غـراس المجد للمقنع الكندي ، ولولا الحياء لجرير وفي الفخر والشجاعة لسعد ببن ناشب » .

وحتى تكتمل الفائدة ، فقد ألحقنـا بالنصوص المحللة نصوصاً أخـرى مختارة غير محللة ، لتتسع النظرة ، وتنفتح الأبواب .

د. محمد بن علي الهرفي　　　د. عبد الرازق حسين

د. نبيل المحيش

الأحساء في غزة ربيع الأول ١٤١٩ هـ

الموافق للشهر السابع من عام ١٩٩٨ م

العصر الإسلامي

يبدأ هذا العصر بظهور الرسول ﷺ إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م ، وهو العصر الذى استكملت فيه الدولة الإسلامية الفتوح ، وتم لها الاستقرار ، وبعض المؤرخين يجعل هذا العصر قسمين :

القسم الأول ، عصر صدر الإسلام ، وهو يمتد إلى نهاية خلافة على بن أبى طالب رضي الله عنه .

والقسم الثانى ، يبدأ بحكم معاوية وينتهى بسقوط الدولة الأموية .

أما القسم الأول : وهو الفترة الزمنية التى تبدأ بظهور الإسلام وتنتهى بقيام الدولة الأموية. فقد أتم الله نوره . وانتشر الإسلام وعم أطباق الأرض ، وقد استلهمه الشعراء فى أشعارهم ، ومضوا على هدى من القرآن يرسمون وينشئون .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن عصر صدر الإسلام ، لابد من وقفة نعرض فيها لموقف الإسلام من الشعر ، فما موقفه ؟

وردت لفظة الشعر والشعراء فى مواضع عدة فى القرآن الكريم ، تنفى فى معظمها ما حاول كفار قريش إلصاقه برسول الله ﷺ من اتهامات باطلة ، فهم بعد أن أحسوا بروعة القرآن وعظمة بيانه ، قارنوا تأثيره بتأثير الشعر فى الأسماع والقلوب ، فادعوا الشعر على رسول الله ، ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء آية ٥] .

فنفى القرآن دعواهم هذه ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[يس آية ٦٩-٧٠] ، فالقرآن هنا يرد دعاوى المشركين الباطلة ، وأن هذا القرآن هو وحى من الله ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ، فهو يبطل زعم المشركين ، وجميع الآيات التى وردت فى ذلك إنما هى لتنزيه الرسول الكريم عن قول الشعر ، أو يكون واحداً من الشعراء .

ولكن من حيث هو فن من القول يجوز للمسلم أن يقوله ويتعاطاه أو يحرم ذلك عليه ، فلا نستطيع القول بأن الآية التى وردت فى سورة الشعراء حرب على الشعر وتحريم له ، بقدر ماهى حرب على هذا المسلك والمنهج الذى سار عليه الشعراء ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧) ﴾ [الشعراء آية ٢٢٤-٢٢٧] ، فالقرآن يوجه الشعراء إلى الطريق الأمثل ، وهو بعد يميز بين فريقين من الشعراء : فريق استغل هذا الفن فيما ينافى هدى الدين ، وفريق اتجه إلى نصرة الحق .

فالقضية إذن ليست فى الشعر ذاته ، وإنما فيما يتناوله الشعر من معانى وأغراض .

لذلك توجه حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك ، إلى الرسول ﷺ وهم يبكون ، قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية ، أنا شعراء ، فتلا النبى ﷺ ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : أنتم .﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ﴾ قال : أنتم ﴿ وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قال : أنتم .

وما أثر عن الرسول ﷺ من تشجيع حسان بن ثابت للرد على شعراء المشركين ، ومن سماعه للشعر والشعراء واستحسانه لما يقولون دليل على إباحته لهم نظم الشعر ، بل إنه كان يثنى على شعراء الإسلام ، ويقدر دورهم فى محاربة المشركين ، ويخاطبهم قائلاً : « اهجوا بالشعر ، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذى نفس محمد بيده كأنما تنضحونهم بالنبل » [مسند أحمد ٣/ ٤٦٠] .

وخاطب حساناً : « اهج المشركين فإن روح القدس معك ، وقال له : إن روح القدس لايزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » [صحيح الجامع الصغير ٢/ ٢٠٩ - ٢٣٩] وأحاديث الرسول ﷺ كثيرة فى ذلك ، ومواقفه ،واضحة .

● ● ●

الإسلام والشعر

كان المجتمع الجاهلى يصدر عن قيم يحترمها ، ويدعو إليها ، ويمجدها ، منها الحسن ، ومنها السيء ، وكلها تدور فى دائرة المصلحة القبلية ، ولكن النزاع القبلى ، والعصبية والأنانية كل ذلك كان يؤجج الحروب والغزو والسلب ، وجرت حروب كثيرة وأيام متعددة بين سائر القبائل العربية ، لامجال لذكرها هنا ، وأصدق مثال على هذه الحالة من التمزق قول الشاعر :

وكنّ إذا أغرن على قبيل ... فأعوز هن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حلال[1] ... وضبة إنه من حان حانا[2]

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا مالم نجد إلاّ أخانا

والظلم هو سيف القوة القاهر ، كما يقول زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لايظلم الناس يُظلم

وغالوا فى عاداتهم الحسنة ، لدرجة أصبح الكرم سفاهة وتبذيراً ، وحماية المستغيث – وإن كان على باطل – تقتضى إفناء الحيين فى حرب طويلة الأمد ، دون التفاهم على حل يمنع إزهاق الأرواح البريئة .

إلى جانب هذه القيم ، فقد وجدنا العصبية الكريهة تظلل النفوس ، فالفرد يفنى من أجل القبيلة :

وما أنا إلاّ من غزية إن غوت ... غويتُ وإن ترشُد غزيةُ أرْشدِ

والقبيلة كلها تقف خلف الفرد ، حتى لو كان على خطأ ، فهم كما قال الشاعر :

لايسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ماقال برهانا

هذا هو اللون الذى طغى على حياة القوم وعاداتهم فاتسعت رقعة السواد ، لتضغط بحوافها بقوة على بعض تلك النقاط المضيئة .

---

(١) حى ضباب المجاور لهم .

(٢) من جاء أجله فهو هالك .

وأشع نور الإسلام ، فأبطل كثيراً من هذه العادات ، وأرسى مكـانها قيماً جديدة ، فالأخوة حلت محل النزاع ، والجهاد بدل الغزو والسلب ، وذلك المجتمـع المتآلف المتآخى الذى لافرق فيـه بين أبيض وأسود ، ولافضل فيـه لعربى على عجمى إلاّ بـالتقوى ، هـذا المجتمع حل محل القبيلـة ، ثم صاغ أسبـاب الحياة المختلفـة ، وجعل من التعامل الحر الكـريم ، ومن التراحـم ، والعدل ، والإيثار ، والمحبة ، أسباباً يقيم بها الجديدة .

وبهذا فقد انطلق الشعر إلى آفاق رحبة ، وبعد أن كان حائراً لا هدف له ، أصبح ذا هدف كبير ، وتقع على عاتقه مسئولية جسيمة تتصل بدنياه وآخرته .

فهب شعراء الإسـلام يدافعون عنه عنـدما احتدمت الخصـومة بين المسلمين والمشركين ، وكان الشعر أحد أسلحتها ، وقد استنفر الرسول ﷺ شعراء المسلمين آنذاك قائلاً : « من يحمى أعراض المسلمين ؟ » فجاءه عبدالله بن رواحه فنظر فى شعـره وقال : « أنت شاعر كريم » وقام إليه كعـب بن مالك فقـال له الرسـول الكريم : « أنـت تحسن صفة الحرب » . ويأتيـه حسان فيعجب بقوة عارضته فيقول له : « اهجهم وروح القدس معك » . وقد سر النبى ﷺ لهذا الأثر الذى أحدثه شعر حسـان فى المشركين فقال ﷺ : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » وروى عنه قوله : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى »[(١)] .

وبعد انتصار الإسلام ، مضى الشعراء ينظمون أشعارهم مع الأحداث والفتوحات ، وظل الإسلام رقيباً على الشعـر، يعدل من مساره إذا انحـرف ، ويوجهه الوجهـة الحقة ، ويسير به فى آفاق رحبة ، ويرسو به على شاطىء النجاة .

فهذا عمـر بن الخطاب رضي الله عنه يفرض رقـابة صارمة على الشـــعر ، يروى صـاحب العقد الفريد : أن الـزبرقان بن بدر آتاه بالحطيئـة ، وقال له : إنه هجانى . قال عمـر : وما قال لك : قال : قال لى :

دع المـكارم لا ترحـل لبُغيتهـــا   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[(٢)]

فقال له عمر : مـا أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، وهو هنا يقـف موقف القاضى ، لاموقف الأديب العارف بالشعر ، فيقول الزبرقان : أوما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس ؟

---

(١) الأغانى ٥/ ١٤٣ .

(٢) العقد الفريد ج٥ ص٣١٨ .

فاستدعى عمر حساناً وسأله : فقال : هجاه وأفحش فى هجائه ، وأمر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بحبس الحطيئة بعد سماع رأى حسان ، وظل فى محبسه حتى استشفع بقصيدة يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مرخٍ　　زُغبِ الحواصل لاماءٌ ولاشجر

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمةٍ　　فاغفر عليك سلام الله ياعمر

فأخرجه من محبسه وقال له : « إياك وهجاء الناس ! قال : إذن يموت عيالى جوعاً ، هذا مكسبى ومنه معاشى . قال عمر : فإياك والمقذع من القول ! قال : وما المقذع ؟ قال : أن تخاير بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . قال : فأنت والله أهجى منى . فقال عمر : والله لولا أن تكون سُنّةً لقطعت لسانك » ويقال أن عمر لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكد عليه الحجة ، فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة الاف درهم ، فقال الحطيئة فى ذلك :

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع　　شتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ

وحميتنى عرض اللئيم فلم يخف　　ذمى وأصبح آمناً لايفزع[1]

وتستمر رقابة عمر على الشعر والشعراء ، يذكر ابن رشيق القيرواني : أن بنى العجلان كانوا يفخرون بنسبتهم لهذا الإسم ، لقصة تروى عن صاحبه فى تعجيل قرى الأضياف ، فهاجاهم النجاشى الشاعر ، فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قالوا : ياأمير المؤمنين ، إنه هجانا ، فقال : وما قال فيكم ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة　　فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إنه دعا عليكم ولعله لايجاب ، قالوا فإنه قد قال بعد هذا :

قبيلة لايغدرون بذمة　　ولايظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء ، أو قال ليت آل الخطاب كذلك .

قالوا : فإنه قد قال بعد هذا :

ولا يردون الماء إلا عشيّةً　　إذا صدر الوُرّاد عن كل منهل

---

(١) الأغانى ج٢ ، ص١٨٩ .

فقال عمر : ذلك أقلُّ للسكاك ، يعنى الزحام . قالوا فإنه يقول بعد هذا :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه قالوا فإنه يقول بعد هذا :

وما سُـمِّىَ العجلانَ إلاّ لقولهم   خذ القَعْبَ واحلُبْ أيها العبدُ واعَجلِ

فقال عمر : سيد القوم خادمهم ، وكلنا عبيد الله . ما أرى بهذا بأساً .

وعمر رضوان الله عليه يعلم مافى هذا الشعر من الهجاء ولكنه يريد أن يوجه الشعر إلى تلك القيم الإسلامية الرفيعة الصافية ، وما من شك فى أن مواقف عمر من الشعر هى مواقف الملتزم بمقياس الرسول ﷺ ، فعمر يتجه بالشعر اتجاهاً جديداً يفصله عن ماضيه الجاهلى ، ويصله بحاضره الإسلامى ، فيستلهم تعاليم الإسلام ، ويدعو لها ، وبذلك يكون الشعر من عوامل البناء لا الهدم فى المجتمع الجديد .

وقد أسهم الخلفاء الراشدون الآخرون فى توجيه الشعر ، والإلتزام برأى الرسول ﷺ فى أن أحسن الشعر ما وافق الحق ، وإن ظل عمر بن الخطاب أرجحهم كفة فى ذلك .

● ● ●

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دعوى ضعف الشعر الإسلامي :

تبقى كلمة أخيرة عن الأدب فى العصر الإسلامى لابد من قولها ألا وهى تلك الفكرة التى شاعت الأدب الإسلامى عند بعض الباحثين من قدماء ومحدثين .

وقد استندوا فى ذلك إلى الآية الكريمة التى تقول ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾.

وتناقلوا كذلك حديث المصطفى ﷺ : « لإن يمتلى جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلىء شعرًا » .

ونسمعهم يرددون مقولة الأصمعى : « إن الشعر نكد بابه الشر » ويؤكدون مقولة الضعف هذه ، بأن شعر حسان بن ثابت ضعف ولان فى الإسلام ، بينما هو فى الجاهلية من الفحول ، إلى جانب انصراف الشعراء عن قول الشعر ، أمثال لبيد بن ربيعة .

ونحن مع الذين رفضوا هذه المقولة ، وقد بينا القول فى الآية الكريمة ، أما حديث الرسول ﷺ فقد رفضت السيدة عائشة (رضى الله عنها) هذه الرواية وقالت : « إنما قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلى جوف أحدكم قيحًا ودمًا خير له من أن يمتلىء شعرا هجيت به »[1].

كذلك نجد ابن خلدون يفضل شعر الإسلاميين على الجاهليين فيقول : « إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما »[2].

وغير صحيح أن الشعر نكد لايقوى إلا فى الشر ، فالقوة والضعف مردهما إلى الشاعر نفسه ، لا إلى الغرض نفسه ، فكم من شعر فى الوصف يفوق جمالاً وقدرة وأداءً شعرًا فى الهجاء، وقد ينفعل الإنسان بأسباب الخير أكثر من انفعاله بالشر .

أما القول بأن شعر حسان قد ضعف ولان فى الإسلام ، فإن المحققين من الدارسين قد بينوا تفوق شعر حسان الإسلامى ، ومن يتعمق ديوان حسان يجد فحوله وفخامة وعذوبة ، وسنتبين ذلك إن شاء الله فى دراستنا لشعره .

---

(١) الإجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة ٦٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٤٤ .

وإذا كان الإسلام قد نهى عن بعض الأغراض : كالهجاء ، والخمر ، والغزل الماجن ، فقد فتح الأبواب أمـام أغراض جديـدة : كشعر الجهاد ، والفتوحـات الإسلامية ، وكـذلك الشعر الدينى ، حيث أخذ الشعـراء يتحدثون عن عقائد الدين ومُثُله ، والـدعوة إلى التمسك به ، ثم غرض الوعظ والإرشاد ، إلى جانب الوصايا والزهد ، وغير ذلك من الأغراض .

وبهذا نخلص إلى زيف هذه الدعوى ، وبطلان الحجج التى استند إليها زعم الزاعمين .

أمـا القسم الثانـى من العصر الإسلامى فهـو الفترة الممتـدة من بدايـة حكم بنى أميـة ، وحتى سقوط هذه الدولة ، عام ١٣٢ هـ بغلبة بنى العباس .

وليس من شك فى أن الأسباب التـى أدت إلى قيام الدولـة الأموية قـد تركت أثـارًا بعيدة المدى فى جـوانب كثيرة من حياة المسلمين : الـدينيـة ، والعقلية ، والسيـاسية ، والاجتماعيـة ، والاقتصادية .

وعندمـا نشأ الخلاف على الخلافة ، ظهرت الحزبيـة التى توزعت أهـواء المسلمين ، وكان لكل ذلك أثره على الحياة الأدبية ، فمن مـوال ، ومن معارض ، ومن مادح ، ومن قادح ، وزخم الشعر الأمـوى هذه الحيـاة المضطربة الصـاخبة بـالعصبيات والأحـزاب ، وأصبح لكل حزب شعراؤه ودعاته ، الذين يعبرون عن آرائه ويناضلون دونـه ، وقد وجدنا أغلب الشعر قد أصبح صناعة يتكسب بها بعض الشعراء .

ومع ذلك فظل هنـاك من نأى بنفسـه وشعـره عن كل هـذه الصراعـات . وعمـومـاً فإن الشعرقـد أثر وتأثـر بهذه الانقسامـات والنزاعـات ، إلى جانب تلك المؤثـرات العامـة ، مثل : الامتزاج بالأمم الأجنبية ، والسياسة ، والحضارة .

وأشهـر شعراء العصر ، والطبقـة الأولى من بين شعرائه هم : جـرير والفـرزدق والأخطل والراعى ، ونجـد شعراء اخرين مثلوا الأحـزاب فى شعرهم منهـم : عبيد الله بن قيس الـرقيات ، والطرماح بن حكيم ، والكميت وأعشى همدان وعدى بن الرقاع .

ونجد كذلك شعراء الغـزل العذرى من أمثال : قيس بن ذريح ، وجميل بن معمر ، وكثير بن عبد الـرحمن ، وشعراء الوصف ، مثل : ذى الـرمّة ، إلى جـانب شعراء الزهـد : كأبى الأسود الدؤلى ، وسابق البربرى .

وكثر شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فهم يغدون ويروحون على أبواب الولاة والقوّاد ،

وخير من يمثلهم : نُصيب ، والقطـامى ، وكعب بن معـدان ، وزيـاد الأعجـم ، وابن مفـرّغ ، والحكم بن عبدل ، وثابت قطنة .

وإلى جانب الشعر فقد ازدهرت الخطابة السياسية ،والمحفلية ، وخطابة الوعظ والقصص الدينى ، ومن أشهر خطباء هذا العصر : زياد بن أبية ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، والأحنف بن قيس ، والحسن البصرى .

ونها التدوين والمعـارف ، وظهرت الكتابة الديـوانية ، وترجمت الكتب الأجنبيـة وبخاصة كتب الكيمياء ، والطب ، وغير ذلك من المعارف .

● ● ●

وصية أب

لعبدة بن الطبيب(*)

١. أَبَنِيَّ قَـــــــد كَبِرْتُ وَرَابَنِي ... بَصري ، وفِيَّ لِمُصْلِـــحٍ مُسْتمتَــــعُ

٢. فَلَئِنْ هَلَكْتُ لقَـــدْ بَنَيْتُ مَسَــاعِيــاً ... تبْقَى لكمْ منهـــا مَـــآثِــرُ أرْبعُ

٣. ذِكْــرٌ إذا ذُكِــرَ الكِــرَامُ يَــزِينُكمْ ... ووِرَاثَـــةُ الحسَبِ المُقَـــدَّمُ تَنْفَعُ

٤. وَمَقَـــامُ أيـــامٍ لهُنَّ فَضِيلــــةٌ ... عنـــدَ الحفيظَـــةِ والمَجــامِعُ تَجْمَعُ

٥. ولُهًى مِـن الكَسْبِ الَّـــذى يُغْنِيكُمُ ... يــومــاً إذا احْــتَضَــرَ النُّفُــوسَ المَطْمَعُ

٦. ونَصِيحَةٌ في الصـدر الّذى صَادِرَةٌ لكم ... مــا دُمْـتُ أُبْصِرُ في الـــرِّجَـــالِ وأَسْمَعُ

٧. أُوصيكُـمُ بِتُقَي الإلـــهِ فَـإِنَّـــهُ ... يُعْطِي الـــرَّغَـــائِبَ مَنْ يَشَـــاءُ ويَمْنَعُ

٨. وببِرِّ وَالِـــدِكُمْ وطَـــاعَـــةِ أمــرِهِ ... إنَّ الأَبَـــــرَّ من البَنِينَ الأَطْـــوَعُ

٩. إنَّ الكَبِيرَ إذا عَصَــــاهُ أَهْلُـــــهُ ... ضَــاقَتْ يَــدَاهُ بأمــرِهِ مــا يَصْنَعُ

١٠. وَدَعُــوا الضَّغِينَـةَ لا تكُنْ مـن شأنِكمْ ... إنَّ الضَّغَـــائنَ لِلْقَــرَابَـــةِ تُـــوضَعُ

١١. وَاعْصُـــوا الَّـــذِى يُـــزْجِي النَّمَائِمَ ... بيْنَكـم مُتَنَصِّحــــاً ، ذَاكَ السِّمَامُ المُنْقَعُ

(*) شاعر من تميم ، وعبدة اسمـه والطبيب أبوه واسمه يزيد بن عمرو وليس بين أيـدينا ما يوضح سيرة هذا الشـاعر . وعبـدة شاعـر مخضوم من شعـراء تميم عاش أكثـر حياتـه فى الجاهلية وكـان مشهوراً بخصلتين اللصوصيـة والشاعـرية . أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسـلامه وحـارب مع جيش المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن الـذى حارب الفرس بـالمدائن سنة ١٥-١٦هـ وقـد شهد مع المثنى بن حارثـة قتال هرمـز ، وأبلى بلاءً حسناً . وعبـدة شاعر مجيـد جزل العبارة رصين الأسلـوب ، أعجب النقاد والأدبـاء بشعره واستشهد بـه النحاة واللغويـون والمفسرون ومع ذلك فهو شاعـر مقـل ، وقد أجـاد فى فنون الشعر المختلفـة : كالرثـاء ، والهجـاء ، والغزل ، والفخر ، والحماسة ، والوصف ، والحكمة .

(٢) المساعى : المكارم (٣) الـذكر : الشرف والصيت (٤) المقام ، بفتح الميم : مقام سـاعة فى خطبة أو خصومة أو نحـو ذلك . الحفيظة : الغضب (٥) اللهى ، بضم اللام : العطايا ، واحـدتها لهوة ، وأصلها الحفنة من الطعـــام تطرح فى الـرحى . (٧) الرغـائب : جمع رغيبة ، وهى الشىء الـواسع الكثير ، والشىء النفيس . (١٠) توضع : من قـولهم أوضعت البعير : إذا حملته على العدو . أراد أن الضغائن فى القرابـة سريعة التفشى . (١١) يزجى : يسوق . المتنصح : المتشبه بـالنصحاء . السمام : جمع سم . منقع : معتق ، من قولهم أنقع السم : عتقه ، وأنقعته الحية : جمعته .

١٢. يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكم … حَرْباً كما بَعَثَ العُرُوقَ الأَخْدَعُ
١٣. حَرَّانَ لا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ … عَسَلٌ بماءٍ في الإنَاءِ مُشَعْشَعُ
١٤. لاتأمَنُوا قَوْماً يَشِبُّ صَبِيُّهُمْ … بَيْنَ القَوَابِلِ بالعَدَاوَةِ يُنْشَعُ
١٥. فَضِلَتْ عَدَاوَتُهُمْ عَلَى أَحْلاَمِهِمْ … وأَبَتْ ضِبَابُ صُدُورِهِم لا تُنْزَعُ
١٦. قَوْمٌ إِذا دَمَسَ الظَّلاَمُ عليهمُ … حَدَجُوا قَنَافِذَ بالنَّمِيمَةِ تَمْزَعُ
١٧. أَمْثَالُ زَيْدٍ حِينَ أَفْسَدَ رَهْطَهُ … حتَّى تَشَتَّتَ أَمْرُهم فَتَصَدَّعُوا
١٨. إنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إخْوَانَكم … يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهم أَنْ تُصْرَعُوا
١٩. وثَنِيَّةٍ مِن أَمْرِ قَوْمٍ عَزَّةٍ … فَرَجَتْ يَدَايَ فكانَ فيها المَطْلَعُ
٢٠. ومَقَامِ خَصْمٍ قائِمٍ ظَلِفَاتُهُ … مَنْ زَلَّ طَارَ لَهُ ثَنَاءٌ أَشْنَعُ
٢١. أَصْدَرْتُهُمْ فيهِ أُقَوِّمُ دَرْأَهُمْ … عَضَّ الثِّقَافِ وهُمْ ظِمَاءٌ جُوَّعُ

---

(١٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق . (١٣) الحران : الشديد التلهب ، يغلى جوفه من حرارة الغيظ ، والأنثى حرى ، وأصله العطشان . الغليل : لهبان فى الجوف من الغيظ من العطش ، والغلة ، بالضم : شدة العطش ، والمراد شدة الغيظ . مشعشع : ممزوج . (١٤) القوابل : جمع قابلة ، وهى التى تستقبل المولود . ينشغ : من النشوغ بفتح النون ، وهو الوجور ، بفتح الواو ، يوجر به الصبى أو المريض . ويقال أيضًا للسعوط ، والنشوغ بالغين المعجمة مثله . (١٥) فضلت : زادت . يريد أنهم باحوا بعدواتهم ، لم تضبطها قلوبهم لإفراطها وتقصير الحلم عنها . قال الأنبارى : « فضل ، بكسر الضاد ، يفضل بضمها ، وليس فى الكلام على فعل يفعل غيره » وفى حاشية بعض النسخ : « قال أبو عمرو : قد جاء نعم ينعم وحضر يحضر ، بهذا السالم ، وفى المعتل دام يدوم ومات يموت » . وفى اللسان فى مادة «فضل» نحو هذا ، وزاد «كاد يكود» . وذهب بعضهم إلى أن مثل هذا مركب من وزنين . الضباب الأحقاد ، الواحد ضب ، بفتح الضاد وكسرها . (١٦) دمس : ألبس واشتدت ظلمته . حدجوا : وضعوا الحدج على البعير ، والحدج ، بكسر فسكون : مركب من مراكب النساء . تمزع : تمر مرًا سريعًا . أراد إنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال فى الشر ، كما يسهر القنفذ ، لأنه ليله أجمع يسير ولاينام . (١٧)زيد ، هو ابن مالك الأصغر بن حنظلة بن مالك الأكبر . (١٩) الثنية : العقبة . العزة ، بفتح العين : الصعبة ، نعت للثنية . وهذا الحرف لم يذكر فى المعاجم . والعزة ، بكسر العين : الأعزة . نعت للقوم . يقول : جئت إلى أمر ليس فيه مسلك ففرجته برأى وحذقى فى الأمور . (٢٠) الخصم : الخصوم ، يقال للواحد وغيره . الظلفات ، بكسر اللام : الخشبات التى تلى جنب البعير من الرحل . قال الأصمعى : «يقال للرجل إذا قام الأمر وعنى به واشتد فيه : قام فى ظلفاته» . يقول : حضرت خصومه ومنازعة وافتخاراً من لم يقم بحجة طار له صيت شنيع . (٢١) الدرء : العوج . الثقاف : ماتقوم به الرماح . يقول : حسبتهم عن الطعام والشراب ، لما هم فيه من الجدال ، حتى صدروا عن رأيي .

٢٢. فَـــرَجَعْتُهُـمْ فيــهِ كأَنَّ عَمِيـــدَهُمْ — في المَهْــدِ يَمْـــرُثُ وَدْعَتَيْـــهِ مُـــرْضَعُ

٢٣. ولقـــد عَلِمْتُ بـأَنَّ قَصْرِيَ حُفْـــرَةٌ — غَبْرَاءُ يَحْمِلني إليهــــــــا شرْجَــعُ

٢٤. فبَكَى بَنَـــاتي شَجْــوَهُــنَّ وزَوْجَتِي — والأَقْـــرَبُـــونَ إِلَيَّ ، ثُـمَّ تَصــدَّعُــوا

٢٥. وتُـــرِكْـتُ في غَبْراءَ يكْـــرَهُ وِرْدُهـــا — تَسْفِـي عَلَيَّ الـــــــــرِّيـحُ حِينَ أُوَدَّعُ

٢٦. فإذا مَضَيْـتُ إلى سَبِيلِي فَــابْعَثُـــوا — رَجُـــلاً لَـــهُ قَلْبٌ حَـــدِيـــدٌ أَصْمَعُ

٢٧. إنَّ الحــــوادثَ يَــــخْــتَرِمْنَ ، وإنَّما — عُمْـــرُ الفَتَى في أَهلِـــهِ مُسْتَـــوْدَعُ

٢٨. يَسْعَى ويَجْمَـعُ جـــاهِـــداً مُسْتَهْتِراً — جِـــــدًّا ، ولَيْـسَ بأكِـلِ مـــا يَجْمَـعُ

٢٩. حتَّـى إذا وَافَى الحِمَامُ لِــــوَقْتِـــهِ — ولِكُـلِّ جَنْـبٍ لا مَحَالَــــــــةَ مَصْرَعُ

٣٠. نَبَـــذُوا إليــهِ بـــالسَّـــلاَمِ فلَمْ يُجِبْ — أَحَـــدًا وصَمَّ عـنِ الـــدُّعَـــاءِ الأَسْمَعُ

يبدأ الشاعر بهذا الخطاب :

أبنى إنى قـد كبرت ورابنى — بصرى ، وفى لمصلح ُستمتعُ

بنى : نداء للقـريب ، وهل هناك قـرب أشد الصـاقًا من هـذه اللحظة ، إنـه قرب الحس والمعنى ، والحقيقـة والمجاز ، الأبنـاء يحيطـون بأبيهم الشيخ الكبير المتفـانى ، إحـاطة السـوار بـالمعصم ، يقفون فـوق رأسه ، عيـونهم وأيـديهم ، وحواسهم ، ونبضـات قلوبهم تحيطـه وتحوم حوله، وإذا كـان النداء بأداته ، والظرف بملابسـاته قد أعطيانا صـورة دقيقة لهذا القرب ، فإن التصغير يدنينـا هـــو الآخـر ، ويمثل بُعداً آخر لهذا القـرب ، فتتضح الأبعاد ، بحيث تستطيع حسابها من خلال : الأنفـاس اللاهثة المصطدمـة ، والرؤوس المتقاربة ، والأجسـاد المتلاصقة ، ودقات القلـوب المتسارعـة ، فنبض الحب هو الذى أنشأ هـذا الأسلوب الـذى جمع بين النداء

---

(٢٢) عميدهم : سيدهم الـذى يعتمدون عليه . يمرث : يمص . الودعة ، بسكـون الدال : خرزة تعلق لدفع العين . (٢٣) قصرى : آخر أمرى . الشرجع : خشب يشد بعضـه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى . (٢٤) الشجـو : الحزن . تصـدعوا : تفـرقـوا (٢٦) الأصمع : الحديـد المجتمع ليس بمنتشر . يقـول : إذا مت فـافتقدوا عميـداً مثلى . (٢٧) يخترمن : يقتطعن ويستأصلن . (٢٨) المستهتر : المولع بالشىء الـذاهب العقل فيه من حـرصه عليه . وضبط بكسر التـاء على وزن اسم الفاعل ، فى أصول المتن والشرح أربع مـرات ، والذى فى المعاجم ضبطه بفتحها بوزن اسم المفعول ، وضبط فعله «استهتر» بالبناء للمفعول . فما ثبت هنا لغة لم ينص عليها .

القريب ، والتصغير الحبيب ، فهم وإن كانوا رجالاً ففى قلب الأب المحب مازالوا صغاراً ، وفى حقيقة التجربة ، وأمام شيخوخة أبيهم مازالوا كذلك صغاراً .

لاشك أننا نتطلع إلى سماع هذه الوصية بعد أن دعا الأب أبناءه ، فهم آذان صاغية ونحن كذلك ، فماذا يقول هذا المجرب الحكيم ؟

« إنى قد كبرت » : جملة شحنت باليقين والتحقيق ، إن هذا الإقرار والاعتراف من الأب لأبنائه يؤكد لهم أن الكبر هذا ليس مجرد تقدم فى السن ، وإنما هو مؤشر على اللحظات الحاسمة ، والمفارق الفاصلة ، فكأنه على شفير أن يصبح ماضياً بالنسبة لهم .

ويتبعها بجملة أخرى قاضية : « ورابنى بصرى » فهو لم يكتف بإثبات شيخوخته وتقدمه فى السن ، ولكنه يضيف إلى توكيده السابق ، عنصر إثبات جديد فى قضية الهرم ، فها هو أحد ثقتيه يريبه ويخونه ، وهل هناك أسوأ من خيانة الثقات ، إحدى حواسه المقدمة على غيرها تكاد تصبح هى الأخرى ماضية .

ومع ذلك فلئن ذهب العمر ولحقه البصر ، فمازالت البصيرة حادة وفيها النفع لمن أراد أن ينتفع .

لاشك أن هذا المطلع المكتنز بالحب والقرب والتجربة يقودنا إلى دقائق هذه الوصية ، والتعرف على حيثياتها ، فهو قفل باب فُتح ، أو ضوءٌ أُشعل فى غرفة مظلمة ، من خلاله تستطيع أن تتبين مافيها .

ومع ذلك فهو لم يطلعنا على بنودوصيته منذ الوهلة الأولى لفتح القرطاس ، وإنما صدرها بديباجة ، وكأنه يتمهلنا ، ويدعونا أن لانتعجل ، فهذه السنين الطوال التى مخضها ستصرح عن الزبد .

ويعود الصوت الواهن الضعيف ، وتعود الأسماع المشرئبة تلتقط ما يفوه به زبدة الحقب وخلاصة التجارب ، فماذا نسمع ؟

فلئن هلكت لقد بنيت مساعياً تبقى لكم منها مآثر أربع

إذن تأكيده على الكبر فى المطلع لم يأت جزافاً بل هو يؤكده هنا مرة أخرى بأنه كبر الهلاك ، ويعيد اليقينية والتحقيقية مرة أخرى فالجملة هنا وإن كانت فيها رائحة الشرط إلا أن شحنة اليقين تدفعها باتجاهها ، ودليلنا على ذلك هو هذا التقابل الفذ بين صورتين :

صورة الماضـى وصورة الحاضر ، فصورة الماضى تتمثـل فى الكبير ، وفى الهلاك وفى البناء وصورة الحاضر تتمثل فى : الصغير والبقاء .

فما هذا البناء المشمخر الذى يفخر به البانى الماضى ، الذى سيورثه للحاضر ؟ إنه ليس بنـاءً واحـداً بل أربعـة أبنيـة كما نصت الـوصيـة على ذلك أولاً : فلكم شرف أصـالـة الحسب والنسب « مايعطيـه الماضى للحاضر ، أو المتكسبات الموروثـة للحاضر من الماضى ، والـذكر الحسن والـذكر الحسن لايأتـى من فراغ ، وإنما هـو أثـر لأعمال جليلة ، وقيم رفيعـة تمسك بها الأب ، وسار عليها . حتى أصبحت علامة عليه ، وسيمتد أثرها إلى أولاده .

والأصل الكريم . وهـذا مع سابقه يمثـلان مورثًا هامًـا ، وركنا ركينًا من حيـاة الإنسان ، فالسمعة النـدية ، وعراقة النسب ، تنفعان صاحبهـا وتدفعانه لإكمال البناء ، وكأنى بـالشاعر يؤسـس لتواصل القيم واستمـراريتها ، فإذا كـان الأساس صالحًا متينًـا ، فإن البناء يعـد ذلك يستمر صلبًا قويًا .

ثانيها :

ومقـام أيـام لهن فضـيلة عند الحفيظة والمجامع تُجمعُ

وهذا وإن كـان اكتسابيًـا فهو مُـؤسّس ومُؤَسِّـس لما سبق . فافتخـار الشاعـر بهذا البناء الشامخ المتفرع إلى فرعين يصبـان فى إناء واحد هو إناء القوة ، فقوة البيان والبـلاغة والفصاحة من القوى المؤثرة الفاعلة ، وهل هناك أشد أثرًا وأدوم ميسمًا من الكلمة النافذة التى كان العرب يحسبون لها ألف حساب ، ومـابالك إذا كانت هذه القـوة تردفها وتعضدها قـوة أخرى هى قوة الجسد ؟ هاتان قوّتان فصلان فى الحياة العـربية ، فهو إذن رأس المجمع الذى يُشار إليه بالبنان قوة لسان وساعد ، وفيصل رأى وحكم ، ونفـاذه فى كل خصه فى العضلات وأوقات الأزمات ، وذلك أجـدر أن يتبين أثره ، وأظهـر أن يبقى ذكره ، ففى سـاعة العسرة ، وفى أوان الشـدة يبين ويحكم وينفذ رأيه ، وتشهد الجموع على هذا المقام الذى انفرج عن رجل المواقف الصعبة .

ثالثها :

وهيَ من الكسب الذى يغنيكم يومًا إذا احتصر النفوسَ المطمعُ

إذا كانت الأولى والثانية تتضمن مجدًا تالدًا ، فإن الثـالثة تتضمن عزًا طارفًا ، هو مال من كسبى ترثونه فيغنيكم ، ويكون لكم منعة وقوة .

رابعها :

ونصيحة فى الصدر صادرة لكم　　مادمت أبصر فى الرجال وأسمع

من هنا تبدأ القصيدة ، فبعد المقدمة والديباجة يصل إلى المحز والمفصل الأساس الذى بنيت القصيدة عليه .

فما دعوته لهم ، واجتماعهم حوله إلا ليسمعهم وصيته ، هذه الوصية النصيحة الكامنة فى صدره ، المتنقلة مع هذا الإرث ، وكأنى بالشاعر يقول لهم إنَّ قيامى على هذا الإرث الذى ورثته لكم ، وحفاظى عليه ، يتضمن هذه النصيحة ، فهى معى أحتفظ بها منذ ولادتكم ، وها أنذا أنقلها لكم مع ما سينتقل ، ولذلك فإن هذه النصيحة كما عبر عنها الشاعر :

« ونصيحة فى الصدر صادرة لكم » إنها تصدر من صدره إلى صدوركم وكما حفظها هو حباً وحرصًا وضنًا ، فعليهم أن يعوها ويعملوا بها ، وكما بنى لهم مآثر أربع ، فعليهم أن يلتزموا بهذه الوصايا الأربع :

أوصيكم بتقى الإله فإنه　　يعطى الرغائب من يشاء ويمنع

وببر والدكم وطاعة أمره　　إن الأبر من البنين الأطوع

ودعوا الضغينة لاتكن من شأنكم　　إن الضغائن للقرابة توضع

واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم　　متنصحًا ذاك السمام المنقع

هذه الوصايا الأربع يبدؤها بما هو أهم وأولى ، وأوقع وأنفع ، إنها الوصية الأولى التى مابعدها تبع لها ، فهى الأساس والقاعدة التى يرتب عليها الشاعر وصاياه ويقيم عليها بنيانه ، فتقوى الله هى الباب الواسع للدنيا والآخرة .

ويثنى ببر الأب وكأنه يقرأ فى وصيته قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ .

ثم يرسل لنا جملتين إرسالاً وكأنها أمثال سائرة ، وخبرات يقينية تدل على تجارب عميقة : « إن الأبر من البنين الأطوع » « إن الكبير إذا عصاه أهله ضاقت يداه بأمره مايصنع » .

وينتقل إلى أمر يخصهم فى حياتهم ومستقبل أمرهم ، فى علاقاتهم وتعاملهم ، وهذا الأمر يتعلق بلصدور وماتضم ، فالنصيحة صادرة من الصدر ، ومواجهة إلى صدور أبنائه ليخبرهم بما تتضمنه الجوانح وتحويه الصدور ، وهو يوجهنا جميعاً من خلال خلاصة تجربته .

وهو هنا لم يعرض الوصية عرضاً كما فعل بدءًا ، وكأنى عندما أمرهم بتقوى الله وبر الوالد لم يكن بحاجة إلى وصف أو تدليل ، ولاحجة أو برهان فكأن هذه من المسلمات ، وهل يحتاج النهار إلى دليل ؟

فإذا ماجاد إلى أمر من أمور العلاقات التى خبرها ، ويريد نقل هذه الخبرة لنا فإنه يريش قلمه ويبريه ، ويجنح خياله ويعليه ، ليرتقى درجات من الفن عالية .

فالشاعر هنا ينقلنا إلى مرسم الحياة ، ومن حوله هذه اللوحات المعبرة عن التجربة الإنسانية فى لقطات مؤثرة .

اللقطة الأولى : مادتها معنوية يحولها الشاعر إلى عالم الحس ، ويمزج الواقع بالخيال والحقيقة بالجمال ، فيدهشنا ، إن الشاعر لايستخدم أدوات من خارج الواقع فلايستعين بالأسطورة ، أو عوالم غيبية ، أو معانى غامضة ، فهو فنان ماهر ، يبهر عيوننا بلوحاته التى يأخذ كل مادتها مما حوله ، فالضغينة داء معنوى يُصاب به ذوى النفوس الضعيفة ، وأصحاب القلوب السوداء ، تتحول فى هذه اللوحة إلى مادة ملموسة ، فها هى تسير وتنتقل بسرعة من مكان إلى مكان ، ومن صدر إلى صدر ، تماماً كحيوان مفترس ، أو زاحفة مؤذية .

هذه اللقطة المعنوية التى تتحول من خلال ريشة الشعر إلى لقطة حسية ، تتبعها لقطة أخرى مناسبة لها ، ومتممة للصورة فهو يأمر أبناءه بالتمرد على من يبعث هذه الضغائن ويبثها وكأنه من أولئك الحواة الذين يتلاعبون بالأفاعى والعقارب ، ويرسلونها فى كل اتجاه .

إن هذا الذى يبدو فى سيماه منتصحًا هو فى الحقيقة منبع السم الناقع ومصدره ، ولشدة التناقض بين المظهر والجوهر ، يأتى بالتشبيه البليغ « ذاك السمام المنقع » فالمشبه هو عين المشبه به .

وباستعارة تصريحية تتحول الكلمات من هذا السمام إلى عقارب ، واختيار العقرب تلك الشائلة إبرتها أبدًا تطعن بها كل مايصادفها لتحل محل الكلمة الوقيعة لاختيار مصيب وعجيب فى آن ، فهذه العقرب بصورتها المنفرة وإبرتها السامة تجعلك متوفز الأعصاب من هذا البيت الخرب الذى تتدافع العقارب من ثقوبه ، إن الصورة الواحدة تكاد تنقلك إلى مرسم ملىء بالصور التى يكمل بعضها بعضًا ، فالصفات المتتابعة للنّمام المتنصح والسمام المنقع ، تنقلنا إلى الجو والبيئة التى تتكاثر فيها العقارب ، فهذا الصدر الحار الخرب الخالى من كل قيمة إنسانية ، وهذا الفم الجحر الذى ينفث العقارب ليقدم لنا صورًا فيها من الطرافة مافيها من الإيحاء .

إن ظهور العقارب يكثر فى فصل الصيف وشدة الحرارة ، وصفة النمّام :

حرّان لايشــفى غليل فؤاده　　　عسل بماء فى الإناء مشعشعُ

إن هذا البعد التأملى من الشـاعر ليضفى بعدًا فنيًا يلتقى مع مفـردات الصورة ، فيعطيها حيوية واكتنازًا ، فالخطوط التى تظهـر بعد تعمق وتدقيق هى خيوط التحمت بنسيج الصورة ، وأصبحت جزءًا لايتجزأ منها .

ويؤكد على خطورة حامل لواء الضغينة إذ نشأ وتربى عليها :

لاتأمنوا قومًا يشب صبيُّهم　　　بين القوابل بالعداوة ينشَعُ

فقبل امتـلاء رئتيه بـالهواء تمتلأ بالعـداوة ، إنه يُنَشَّقُهـا مع صرخة الميـلاد ، ولأنها نشأت معهم وتربَّت فى صدورهم فقد خيمت وظللت وفضلت وغطت على عقولهم .

ولكونها جـزءًا من قلوبهم وصدورهم ، فقـد تشبثت بهم تَشَبُّث الضب بجحره إذا خشى الأخذ ، وانظر إلى التنـاسب المكانى الذى يقيمه الشاعـر بين تشبث الحقد فى الصدور وتشبث الضب بالجحور .

وترتبط الصورة الزمـانية بنسيج الصورة العام ، من خلال هذا التوافق والتـواؤم . فالزمان هو القيظ اللاهب ليناسب خروج العقارب ، والزمان أيضًا هو الليل المظلم ليناسب التآمر :

قوم إذا مس الظلام عليهم　　　حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

وتعال معى إلى هذه الصورة العجيبة :

إن هؤلاء القوم فى استعدادهم للنميمة وإثارة الضغينـة كقوم سفر ، يستعدون لرحلتهـم ، فإذا كان الـراحلون يجهزون رواحلهم ، فيضعـون عليها السرج أو الـرحل ، فإن هؤلاء رواحلـهم مختلفة ، إنها قنافذ تلك الحيوانات الشوكية التى لاتسير إلا ليلاً .

وبعد أن يضرب لهم مثلاً من واقعهم بما فعلـه زيد فى رهطه ، فإنه يعود لتحـذيرهم للمرة الأخــيرة :

إن الذين ترونهم إخوانكم　　　يشفى غليل صدورهم أن تُصرعوا

فالمظاهر البراقة يجب أن لاتغركم وتخدعكم ، لأن موتكم شفاء لصدورهم ، بهذا التحذير النهائى يختم الشـاعر حديثه مع أبنـائه ونصيحته لهم ، وكأن هذه الوصيـة بهذا التحذير الأخير يتم بناؤها ، وتكتمل أجزاؤها .

وينتقل الشاعر للحديث عن نفسه ، وهو حديث آسر حزين ، وإن علت فى بدايته النبرة المفتخرة ، فهذه النبرة ماهى إلا صدى لذلك الحزن الذى نشب فى صدر الشاعر ، هذا الصدر الذى يشعر بدنو الأجل ، ويحس باقتراب النهاية ، فما ذلك الفخر إلا لون من ألوان رثاء المجد الضائع ، والنصر الغابر .

ويبدو أنه أراد قبل طى صفحته أن يكمل مابدأه ، من بنائه الذى بناه ، ولعل هذا الاسترجاع هو بمثابة التحنن والتلذذ ، أو هو التوقيع الأخير على صفحة الحياة :

وثَنِيَّةٍ مِن أَمْرِ قَوْمٍ عَزَّةٍ ... فَرَجَتْ يَدَاي فكانَ فيها المَطْلَعُ

ومقَامِ خَصْمٍ قائِمٍ ظَلِفَاتِهُ ... مَنْ زَلَّ طارَ لهُ ثَنَاءٌ أَشْنَعُ

أَصْدَرْتُهُمْ فيهِ أُقَوِّمُ دَرْأَهُمْ ... غَضَّ الثِّقَافِ وهُمْ ظِماءٌ جُوَّعُ

فَرَجَعْتُهُمْ شَتَّى كَأنَّ عَمِيدَهُمْ ... في المَهْدِ يَمْرُثُ وَدْعَتَيْهِ مُرْضَعُ

إذا صرفنا أنفسنا عن جمال الصورة فى «ثنية» و «فرجت يداى فكان فيها المطلع » وفى الكناية والاستعارة أيضًا فى «قائم ظلفاته» وفى التشبيه الساخر لعميد القوم بالطفل الذى يمص ودعته ، أقول : إذا صرفنا نظرنا عن ذلك فإن مايبقى من هذه الأبيات هو الفخر بالبيان والحكمة والتجربة والعقل .

أخيرًا وإذا كان لكل لوحة غرض ، وإذا كان لكل رحلة نهاية يقف عندها الراحل ، فإن هذا الشاعر الفذ يربط المطلع بالختام ، فذكر الكبر وذهاب الصر فى مطلع القصيدة ، هو بمثابة الضوء الكاشف لهذه اللوحة الأخيرة ، والمنبِّه لما سيؤول إليه الحال .

فكما كانت يداه كالشمس المضيئة ، فإن مطلع القصيدة كشف لنا عن هذه النهاية .

والنهاية هنا مقررة بل منتهية ، لأن الشاعر يتحدث عنها كما لو أنها حدثت ، أو أنه يتحدث عن شخص آخر مضى ، فاعتبار ماسيكون أصبح كائنًا فى هذا الرثاء للنفس ، الذى يستحضره الشاعر بعد هذه الجلسة الوصية ، خاتمة الأهداف لأب بنى وأسس ، فقد أدّى ماعليه ، وهو الآن مودِّع راحل ، بل قد ودَّع ورحل مع انتهاء اخر كلمة فى وصيته :

ولقد علمتُ بأن قصرى حفرةٌ ... غبراءُ يحملنى إليها شرجعُ

فبكى بناتي شجوَهُنَّ وزوجتي ... والأقربون إليَّ ثم تصدَّعوا

وتركت في غبراءَ يُكرهُ وردُها ... تَسفِى عليَّ الريح حين أوَدَّعُ

فـإذا مضيتُ إلى سبيلي فـــــابعثـــــوا رجُـــلاً لـــه قلبٌ حـــديـــدٌ أصمعُ
حتـى إذا وافى الحمام لـــــــوقتـــــه ولكـلِّ جنـبٍ لا محالـــــــــة مصرعُ
نبــــذوا إليــــه بـــالســــلام فلم يُجب أحـــــداً وصمٌّ عن الــــدعــــاء الأسمعُ

إن حملـه على النعش ، وبكـاء الأهل والأقـارب ينتهى بوضعـه فى قبره ، واللقطـة الأخيرة الدسمة تظهـر فى قوله (نبذوا) إن هـؤلاء الذين ودعوه بعـد أن وُسّد الثرى ، ألقوا عليـه سلامًا خاطفًـا سريعًا ، وكـأنهم فى هذا (النبـذ) يريدون أن يتخلصـوا من هـذا الذى أثـار أحزانهم ، ويوجهوا وجوههم شطر الدنيا .

وبعد ، فهـذه القصيدة الـوصية ، تجربة شعـرية نسيجهـا الحياة والفن ، ولحمتهـا الوعى والمعرفة ، ونبضها الإيقاع الهادئ المستسلم ، الذى يتشح أحيانًا بـالتوتر ، وإذا اكتملت بالبحر الكـامل إيقاعـات هـذه القصيـدة التى حاول فيهـا الشـاعـر كما قال «فضلت عـداوتهم على أحـلامهم» فقد فضلـت إيقاعـاتها عن الإيقـاع الخارجى المتمثل فى البحـر والقافيـة ، «أبنيّ . إنى.. رابنى » وكأنـه يـردد الألفـاظ بأعينها ، فهـذا الجنـاس الإيقـاعى يبعث الشجى الحزين الرتيب الخارج مـن هذه الحنجرة المتحشرجـة ، وبهذه الغنة فى اجتماع النـون والياء والتشـديد ، الـذى لم يقتصر على بدايـة العـروض ، وإنما انتقل إلى الضرب فى قـوله : (وفيّ) يكتمـل جانبـا الإيقاع الداخلى والخارجى ، وهو كذلك يكتمل فيما أورده من جناس ، كما فى :

ذِكر ، ذُكِـر ، وبِر وأبَر ، وطاعـة ، وأطوع ، والمجامع وتجمع وفى هـذا الطباق ، فى : أبصر وراب ، ويعطى ويمنع ، والكبير والصغير ، ويشب وصبى ، وعداوة وأحلام .. إلخ .

وتكـاد حروف السين والشين والصـاد تمثل فكرة هـذه القصيـدة ، فالـوشايـات والنمائم والفتن فيهـا من الوسـوسـة مافى هـذه الحروف ، وانظـر فى حرف السين . «مسـاعى ، حسب ، كسب ، النفـوس ، أسمع ، سمام ، عسل ، دمس ، أفسد ، تسفى ، سبيلى ، مستـودع ، يسعى ، مستهترًا ، ليس ، السلام ، الأسمع » .

وحـرف الشين : « يشـاء ، شأنكم ، يشفى ، مشعشـع ، يشب ، ينشع ، تشتت ، يشفى ، أشنع ، شتى ، شرجع ، شجوهن » .

وحرف الصاد : « احتصر ، ونصيحة فى الصدر صادرة ، أبصر ، أوصيكم عصاه ، يصنع ، اعصـوا ، متنصحًا ، صبيهـم ، تصدعـوا ، صـدورهم ، ترعـوا ، خصم ، أصـدرتهم ، قصرى ، تصدعوا ، أصمع ، مصرع ، وصمّ » .

وانظر إلى تكرار الحرف الواحد فى البيت الواحد كما فى قوله :

ونصيحة فى الصدر صادرة لكم ... مادمت أبصر فى الرجال وأسمع

وقوله :

يزجى عقاربه ليبعث بينكم ... حربًا كما بعث العروق الأخدعُ

وقوله :

ودعوا الضغينة لاتكن من شأنكم ... إن الضغائن للقرابة توضعُ

وقوله :

يسعى ويجمع جاهدًا مستهترًا ... جدًا وليس بآكل مايجمع

فحرف (الصاد) فى الأول (والعين) فى الثانى و(الضاد) فى الثالث و (السين والجيم) فى الرابع لتبين عن هذه المقدرة الإيقاعية .

● ● ●

شكوى العمّال

وقال عُبَيْد الراعى فى عمال الزكاة :

إنّي حَلَفْتُ على يمينٍ بَــــرَّةٍ	لا أكْـــذِبُ اليـــومَ الخليفَـــةَ قيــــلا
مــــا زُرت آلاً أبي خبيبٍ طـــائعًــا	يــومـــاً أريـــدُ لبيعتي تبـــديــــلا[1]
ومــــا أتيتُ نُجَيْـــدَةَ بنَ عـــويمـــرٍ	أبغي الهدى فيـــزيـــدُني تضليــــلا[2]
مِـنْ نِعْمَـــةِ الـــرَّحْمنِ لا من حيلَتي	إنّي أعُـــدُ لَـــــهُ عليَّ فضــــولا[3]
وشَنِئْـتُ كُـلَّ مُنــــــافِقٍ مُتَقَلـبٍ	تــركَ الـــزلازلُ قلبـــهُ مَـــدْخـــولا[4]
واهي الأمـــانـــةِ لا تـــزالُ قلـــوصُـــه	بَيْنَ الخوارجِ هِـــزَّةً وذميــــــلا[5]

(*) هو عبيـد بين الحصين بن جندل من نمير بن عـامر بن صعصعة ، شـاعر فحل من شعـراء الإسلام ، مقدم مشهور، ذكره ابن سلام الجمحى فى الطبقة الأولى من شعراء عصر الإسلام مع الفرزدق وجرير والأخطل.

ذكر أبـو الفرج الأصفهانى الـراعى النميرى فقال : « اتفقت العرب على أن أشعر الإسـلام ثلاثة : جـرير والفرزدق والأخطل ، واختلفوا فى تقديم بعضهم على بعض ، قال محمد بن سلام : « والراعى معهم فى طبقتهم ولكنه اخرهم ، والمخالف فى ذلك قليل ».

وسمى راعى الإبل لحسن نعته الإبل وكثرة وصفها فى شعره ، وقد هـاج الهجاء بينه وبين جرير وكان سبب ذلك انتصاره للفرزدق ضد جرير ، فهجاه جـرير بقصيدة أحملته وأطفأت جذوة نمير إذ كانت جمرة من جمرات العرب ، وبيت جرير المشهور فى هجاء الراعى وقومه هو :

فَغُضّ الطّرْف إنّك من نُمَيْرٍ ‏‏‏ فلا كعبًا بَلَغْت ولاكلابا

مناسبـة القصيدة : قال الـراعى هذه القصيدة فى مـدح الخليفة لأمـوى عبد الملك بن مروان ويشكـو إليه عمّال الزكـاة (أى السعاة الذين يحصلون الـزكاة) وهذا لون جـديد من الشعر سمعنـا بداياته فى عهـد عمر بن الخطاب حيـث الشكوى من بعض العمـلال والولاة كما نجد ذلـك عند يزيـد بن الصعق الذى أرسـل يشكو أصحاب الخراج إلى عمر بن الخطاب وفيها يقول :

نؤوب إذا آبوا ونَغْزوا إذا غَزَوْا ‏‏‏ فأنّى لهم وَفْرٌ وليس لناَ وَفْرُ

لذلك كان الراعي يعتز بهذه القصيدة فيقول « من لم يرو لى من أولادى هذه القصيدة فقد عقّنى » .

(١) آل أبى خبيب : آل الزبير .

(٢) نجيدة بن عويمر : نجـدة بن عامر من رؤوس الخوارج وزعيم فرقة النجديـة الذى خالف نافع بن الأزرق وانفصل عنه .

(٣) الفضول : جمع فضل بمعنى الإحسان والإنعام .

(٤) شنئت : أبغضت وكرهت . الزلازل : الشدائد . المدخول : الفاسد .

(٥) القلوص : الفتيـة من الإبل . الهزة : أن يتحرك الموكب وقد اهتـز . الذميل : السير اللين السريع . كنى بها عن الميل إلى الخوارج .

إذ كُلُّهُـــمْ أمْـــسى يَهُـــمُّ بَيْعَـــةٍ مَسْحَ الأَكُـفِّ تعـــاوُرُ المنـــديـــلا[1]

أخليفـــةَ الـــرحْمنِ إنّـــا مَعْشَرٌ حُنفـــاءُ نَسْجُـــدُ بُكْـــرةً وأصيـــلا

عَـــرَبٌ نـــرى للهِ في أمـــوالنـــا حَقَّ الـــزَّكـــاةِ مُنـــزَّلاً تنـــزيـــلا

إن السُّعـــاةَ عَصَـــوْكَ يـــومَ أَمَـــرْتَهُمْ وأتَـــوْا دواهِيَ لـــوْ عَلِمْتَ وغـــولا[2]

كتبـــوا الـــدُّهَيْمَ من العـــداءِ لمُسْرِفٍ عـــادٍ يُـــريـــدُ خيـــانـــةً وغُلـــولا[3]

ذُخْـــرَ الخليفـــةِ لـــو أَحَطْتَ بِعِلمـــهِ لتَرَكْتَ مِنْـــهُ طـــائفـــاً مَفْصـــولا[4]

أخـــذوا العـــريفَ فقطّعـــوا حيـــزومـــهُ بـــالأَصْبحِيَّـــةِ قـــائماً مَغْلـــولا[5]

حتّى إذا لم يَتْركـوا لِعظامِـه لَحْماً ولا لفُـــؤاده معقـــولا[6]

جـاءوا بِصَكِّهِمُ وأَحْـــدَبَ أســـأَرَتْ منـــه السِّيـــاطُ يـــراعـــةً إجفيـــلا[7]

نَسـيَ الأَمـــانَـــةَ من مَخافـــةِ لُقَّحٍ شُمُس تـــركْـــنَ بضيعَـــه مَجْزولا[8]

أخـــذوا حُمولتـــهُ فأَصْبَحَ قـــاعِـــداً لا يَسْتطيعُ عـنِ الـدِّيـارِ حَـويـلا[9]

يَـــدْعـــو أميرَ المؤمنينَ ودونَـــهُ خَبْتٌ تَجُرُّ بـــه الـــرِّيـــاحُ ذيـــولا[10]

كهُـــداهـــدٍ كَسَرَ الـــرُّمـــاةُ جَنـاحَـــهُ يَـــدْعـــو بقـــارعـــة الطـريـق هـديـلا[11]

---

(١) تعاور: تناول بيعة المتقلبين بتعاور المنديل.

(٢) السعاة: الولاة. غول: دواهي.

(٣) الدهيم: الداهية والشـر. وأراد بالدهيم هنا الصـك الذى كتبه السـعاة. العداء: الظلم. الغلول: الخيانة.

(٤) يقول: لو أحطت خبرًا بظلم الساعي لنكلت به.

(٥) العـريف: القيم بأمور القبيلـة. يقول: أخـذوا العريف مشـدودًا مكبلاً بـالأغلال. حيـزومه: صـدره. الأصبحية: السياط.

(٦) المعقول: العقل. يقول: طار عقله من شدة عذابهم له.

(٧) صكهم: ماكتبوه. أحـدب: يعني العريف. أسأرت: أبقت. براعـة: قصبة. يقول: كأنه قصبـة جوفاء لاقلب له. إجفيل: يجفل من كل شيء. والإجفيل: ذكر النعام لأنه يجفل من كل شيء.

(٨) لقّح: سياط، كأنها أذناب إبل لقحت فهو تشول بأذنابها. بضيعة: لحمه. مجزول: مقطوع. يقول: أنسى الأمانة فخانها لشدة خوفه من السياط التى ألهبت صدره ومزقت لحمه.

(٩) الحمولة: الإبل التى تحمل الأحمال. حويلاً: تحوّلاً.

(١٠) الخبث: ماتسع واطمأن من الأرض.

(١١) الهداهد: الحمام سمى بهذا لهدهدة صوتـه. يقول: تـركوا العـريف محطومًـا فزعًـا كحمامة كسر الـرماة جناحها فهو ملقى فى قارعة الطريق لايستطيع البراح يهدهد بصوته مستغيثًا بالهديل ولامغيث.

وَقْعَ الـــرَّبيعِ وَقَــدْ تقــارَبَ خَطْــوُهُ	ورأى بَعقْـــوَتِــهِ أَجَشَّ نســـولا[1]
مُتَــوَشِّـحَ الأَقْــراب فيــه نَهْمَــةٌ	نَهِشَ اليَـــدَيْنِ تخالُـــه مَشْكـــولا[2]
كـــدُخـــانِ مُـــرْتَجِلٍ بـأعْلى تَلْعَـــةٍ	غَـــرْثـــانَ ضَرَّم عَـــرْفَجَـا مَبْلُـــولا[3]
أخليفَـــــةَ الـــــرَّحمنِ إنَّ عشيرتي	أمسىَ سَـــوامُهُمُ عـــزيـنَ فُلـــولا[4]
قَـــوْمٌ على الإِســـلامِ لَمّـــا يَتْرُكـــوا	مــا عُـــونَهم ويُضَيِّعـــوا التَّهليـــلا[5]
قطعـــوا اليمامَـــةَ يُطْـــردون كـأنَّهم	قَـــوْمٌ أصـــابُـــوا ظـــالمين قتيـــلا
يَحْدون حُـــدْبـــاً مـــائلاً أشْرافُهـــا	في كلِّ مَقْـــرَبَـــةٍ يَـــدَعْنَ رعيـــلا[6]
حتى إذا حُبِسَتْ تُنَقّيَ طِـــرْقُهـــا	وثنى الـــرُّعـــاةُ شكيرَهـــا المنجـــولا[7]
شَهْـــرَيْ ربيعٍ مـــا تـــذوقُ لَبـــونَهُمْ	إلاّ حُموضـــــاً وَخْمَةً وذويـــــلا[8]
وأتـــــاهُـمُ يحيى فشــــدَّ عَلَيْهـمُ	عَقْـــداً يـــراهُ المسلمـــونَ ثقيـــلا[9]
كُتُبَـــا تَـــرَكْتُ غَنِيَّهُمْ ذاخَلَّـــةٍ	بَعْـــدَ الغنى وفقيرهـم مهـــزولا[10]
فَتَرَكْتُ قـــومـي يقسمـــون أمـــورَهُمْ	أإِلَيْـكَ أم يتلبَّثـــون قليـــلا[11]

(١) وقع الربيـع : أى ضرب المطر للأرض ، أراد : صـوت الهداهد فى شـدته وقع المطـر على الأرض . العقوة : ساحـة الدار وماحولها . أجش : أى أجش الصـوت شديده ويعنى الذئب . نسـول : سريع من النسلان وهى مشية الذئب إذا أسرع .

(٢) الأقـرب : جمع قـرب بـالضم وهى الخاصرة . نهش : قليل اللحم . النهم « الحريـص على الأكل . تخالـه مشكولاً : أى لايستقيم فى عدوه كأنه قد شكل بشكال .

(٣) المرتجل : المتبـدى . التلعة : مـا ارتفع من الأرض . غـرثـان : جـوعان . العـرفج : نبت سريع الاتقـاد مع البيوس كثير الدخان مع الرطوبة .

(٤) السوام : السائمة . عزين : جماعات متفرقة . فلول : منهزمة .

(٥) الماعون : الزكاة .

(٦) يحدون : يسوقـون . الحدب : الإبل المهزولـة . أشرافها : أسنمتهـا . المقربـة : الطريق فى الجبل . الـرعيل : القطيع .

(٧) حبست : يعنى الإبل . تنقى : تخبر . والطـرق : الشحم . ثنى : رد . الشكير : صغـار الشجر . المنحـول : المقطوع بالمنجل . يريدأن السعاة حسروا إبلهم فانتقوا خيارها وتركوا شكيرها .

(٨) البون : الناقة ذات اللبن . الحموض : جمع حمض . وخمة : ذات وخم . الذويل : النبات اليابس .

(٩) يحيي : هو يحيي بن الحكم بن أبى العاص . العقد : العهد .

(١٠) خلة : الفقر والحاجة .

(١١) يقسمون أمورهم : ينظرون فيها ويدبرونها .

أنت الخليفَــةُ عَــدْلُــهُ ونــوالــه — وإذا أَرَدْتَ لِظَـــالم تنكيـــلا

فـــارْفَعْ مظــالمَ عيَّلتْ أبنــاءَنــا — عنّــا وأنقِــذْ شِلْــوَنــا المأكــولا[1]

فَنَــرى عطيَّــة ذاكَ إن أعطيتَــهُ — منْ ربِّنــا فَضْــلاً ومنْكَ جــزيــلا[2]

إنَّ الّــذيــن أَمَــرْتَهُمْ أن يَعْــدِلــوا — لم يَبْلُغــوا مِمّــا أرَدْت فتيــلا[3]

أخــذوا الكــرام من العِشــارِ ظُــلاَمَــةً — مِنّــا وتكتَــبُ لــلأمير أفيــلا[4]

فلئــن سَلِمْتُ لأدعـــونَّ بِظَعْنَــةٍ — تَــدَعُ الفَــرائِضَ بــالشريف قليــلا[5]

● ● ●

---

(١) المظالم : جمع مظلمة وهو اسم ما تطلبه عند الظالم واسم ما أخذ منك ظلمًا . عيّلت : أفقرت . الشلو : العضو الممزق . يقول : ارفع عنّا مظالم أفقرت أبناءنا وتركتهم عالة يتكففون الناس ، وأنقذ ما بقى منا بعد الذى نزل بنا ومزقنا .

(٢) عطية : أراد بها رفع المظالم .

(٣) الفتيل : مـاكان فى شق النـواة وبه سميت فتيلـة . وقيل : هـو مايفتل بين الإصبعين من الـوسخ ويضرب للشىء التافه القليل . أراد أنهم لم يبلغوا من العدل قدر هذا الشىء التافه القليل .

(٤) الكرام مـن الإبل : خيارها . العشـار : النوق الحوامل . الظـلامة : المظلمـة . الأفيل : الصغير من الإبل ، وجمعه إفال .

(٥) ظعنة : رحلة ، من ظعن الحى يظعن ظعنًا : ذهبوا وسـاروا . الفرائض : جمع فريضة وهى من الإبل والغنم ما بلغ عدده الزكاة ، سمى فـريضة لأنه واجب على رب المال . الشريـف : أرض بنى نمير رهط الراعى فى حمى ضريـة من نجد . يهدد الشـاعـر الخليفة عبـد الملك فيقول : لئـن سلمت وبقيت لأدعون قـومى أن يرحلوا عن ديـارهم بالشريف فلا يدعوا فيهـا من النعم إلا قليلاً لاتجب فيه الزكـاة فنجوا بذلك من ظلم السعاة الذين وليتهم على أرضنا .

شكوى العُمّال

للراعي النميري

لم ينل الراعى فى دراسة النص الشعرى ما ناله أبناء طبقته الثلاثة : « جرير والفرزدق والأخطل » .

وهذا النص الذى يقدمه لنا الراعى النميرى من النصوص المتفردة التى تتناول قضية حساسة تشغل بال الحاكمين والمحكومين على السواء .

وعلى الرغم من توجه الشاعر بالشكوى إلى الخليفة ، فإنه لايكاد يمدحه فى بيت واحد ، وتظهر هذه البداية المخالفة لكل القصائد الموجهة للخلفاء ، فلاهو يبدأ البداية التقليدية بالغزل ، ولاهو يتحدث عن الأطلال ووصف الصحراء ، وإنما يبدأ بداية حادة ، فيقسم بأن سيصدق الخليفة فى حديثه الذى لم يخبرنا عنه ، إذ أنه بعد هذا القسم تحول ليخبر عن ثبات بيعته ، وأنه لم يتحول فى ولائه عنهم لغيرهم من الزبيريين أو الخوارج ، كما فعل غيره من أهل النفاق المتقبلين ، ويظل فى سرد وصفهم حتى تتطاول الأعناق ، وتستشرف الآذان ما وعد الخليفة من صدق القول ، وعندما يطمئن الشاعر إلى أن الجميع آذان صاغية ، وأنهم يتطلعون ويتشوقون لمعرفة هذا القسم ، يمهد الشاعر بيتين عن قومه ، فيصفهم بأنهم :

أخليفة الرحمن إنَّا معشر ... حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً

عربٌ نرى لله فى أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلا

بعد هذا التأكيد على إسلامهم وأنهم يؤدون الزكاة ، يبدأ الشكوى المريرة من عمال ازكاة ، فهم ليسوا عمالاً أو سعاة ، وإنما هم عصاة خارجون على أمر الخليفة ، وكفى بهذا الوصف المثير ليثير حفيظة الخليفة ، فالحديث بداية عن عدم خروجه - مع كثرة الخارجين - والحديث عن عصيان السعاة نوع من المقابلة التى تثير أشجان الخلافة ، فالعصر عصر فتن وخروج ، وهذا أمر مقلق ، فهو قد أصاب المحز فى هذه البداية .

وإذا مانجح فى هذه الإثارة فإن تفصيل مخالفاتهم ، وتبيان إساءاتهم بهذه الصور المتعددة من القسوة والشدة ، والتعذيب والتنكيل ، والكذب والافتراء ، والتزييف والتحريف ستؤدى إلى أن ينجح فى شكواه .

بحرف التأكيد (إنّ) يخبرنا عن هؤلاء السعاة :

إنّ السعاة عصوكَ يوم أمرتهم وأتَوْا دواهيَ لو علمت وغولا

وبـدأ يقص علينـا هـذه الـدواهى المتمثلـة فى انهيـار القيم والأخـلاق وضيـاع الأمـانـة والصدق، وفى لوحات متتالية يقلبها أمام عيوننا لوحة لوحة .

فهم خونـة يسرقون ويغلّون ، ويزيفـون الصكوك ، ولو علم الخليفة مـاهم عليه من الشر والظلم لنكل بهم .

ثم يعرض لنـا إحدى صـور القسوة هـذه : فهم قد تسلطـوا على شيخ القبيلة وعـريفها ، وأخذوه مشدودًا مقيـدًا بالأغلال ، بعدما ظهـرت آثار السياط فى صدره جـروحًا غائرة ، وتحوّل من شدة التعذيب إلى نضو هزيل مصاب فى عقله .

ثم لوحة أخرى أشد تأثيرًا وإيضـاحًا لما صنعوه ، فقد أقبلوا بصكهم ومعهم رجل تحدب ظهره جعلته السياط كالقصبة الجوفـاء يجفل من كل شىء ، فهو لايكاد يستقر على حال ، وإذا ما أردت أن تتعرف على هذا الأحدب، فإنك بعد لأى وجهد ستتبين أنه رأس القبيلة وعريفها ، والشاعر يريد أن يقول : إذا كان هـذا فعلهم فى رأس القبيلة فما بالك بمن هو أقل منه . وتتابع صور هذا العريف ، فمن مصاب فى عقله ، إلى ذكر نعام يجفل من كل شىء ، إلى هداهد كسير الجناح ملقى على جانب الطريق .

ويشتـد الشاعـر فى التصعيد والتـوتير ، فينتقل من وصف هذا العـريف إلى الحديث عن قومـه الذين تشتتوا وتفـرقوا يسـوقون إبلهم المهزولـة بعدما أخـذ السعاة خيـارها ، وتركـوا هذه العشيرة لاتجد ما تبل به أوامًا ، تتكفف الناس .

ويعطف هنا عودًا على بدء ، فما ذكره من البقاء على العهد يلمح فى أنه قد لايستمر :

فتركت قومى يقسمون أمورهـم أَإليك أم يتلبثون قليلا

وإذا ما وصـل إلى هذه النقطة فـإنه يعود ليثبـت فى ذهن الخليفة شرور هـؤلاء السعادة ، وكأنه يقول : إن تهديـدنا هو بسبب هؤلاء الظالمين الذين يأخـذون خيار الإبل والنوق الحوامل ثم يسجلونها فى صكـوكهم صغيرة ، فهم لايظلموننا نحن ، وإنما يظلمـون الخليفة وبيت المال وجميع المسلمين .

إن هذه القصيدة فى موضوعها وأسلوبها تبين شدة التزام الشاعر بقضية قومه ، فهو المدافع عن حقوقهم ، القائم بواجباتهم ، فهذا من الشعر الملتزم ، ثم هو بعد ذلك نقد سياسى يتوجه إلى فئة من موظفى الدولة ، وكأنه يدعو إلى جهاز رقابة يوقف هؤلاء عند حدهم ، ويمنعهم من التصرف المشين فى حق أناس لهم من العهد والدين والمكانة مالهم .

وتمثل هذه القصيدة وحدة موضوعية تامة ، فلا يكاد بيت يخرج عن المعنى العام ، فهو لاينتهى من معنى إلاّ ليضيف له مايعززه ويقويه ، وإحساس الشاعر بهذا الربط القوى يجعله يرد المقدمة على الخاتمة ، أو الخاتمة على المقدمة كما فى رد الإعجاز على الصدور ، ومما يؤكد ماقلناه أن كل الصور التى عرضها ارتبطت بفساد عمال الزكاة .

وإذا كان البحر الشعرى والقافية هما الإطار الذى يحوى القصيدة فإن هذا الإطار أو الوعاء كان مناسبًا ، فالكامل من البحور المعبرة بإيقاعها المتفاعل مع الجوانب العاطفية ، وقد أضفت حركة هذا البحر على القصيدة حركة تصويرية عاطفية .

أما القافية فقد اختار اللام مع الألف مسبوقة بحرف مدٍ أيضًا وهذا أطلق للتعبير عن المشاعر ، فاللام المتوسطة بين حرفى مد تعطى اللفظ جلالة ، والعاطفة احترامًا ، والإيقاع فخــامة .

أما جوانب الإقناع الأخرى فى التعبير فقد استخدم الشاعر أساليب متنوعة منها :

١ - أسلوب التذكير بأنه مقيم على العهد .

٢ - أسلوب التقرير الذى يظهر فى حديثه عن إيمان قومه وأنهم باقون على صلاتهم وزكاتهم .

٣ - أسلوب التلميح فى قوله :

إذ كلهم أمسى يهمُّ ببيعةٍ   مَسْحَ الأكفِّ تعاور المنديلا

٤ - أسلوب تصوير الحال فى وصف السعاة وظلمهم ، وتصوير ما آل إليه حال قومه من الأذى والظلم والتفرق والتشرد .

٥ - أسلوب التهديد بالتحول عن العهد والبيعة .

أما أساليب الإنشاء من أمر ونهى ونداء وشرط ونفى فالقصيدة تحفل بها لما لها من التنوع فى إثراء الأدلة والوصول بالقضية إلى مراحلها الختامية .

وجـودة القصيدة تكمن - إلى جـانب مـا سبق - فى تصـوير الحال مـن خلال لقطـات مؤثـرة، وإذا اختيرت صورة العـريف بصدره الممزق ، وعظـامه البـادية ، واختـلال عقله ، ثم تصويـرة بذكـر النعام الجافل أبـدًا ، أو بطير الحمام الكسير الجناح الملقى على قـارعة الطـريق لاتكاد تتبينه إلاّ من صوته ، وقد تقارب خطوة لشدة ضعفه وهو يحاول الإسراع خوفًا على نفسه من ذئب رآه فى ساحة الدار ولكنه لايستطيـع الإفلات ، وهنا جمع شدة الخوف والضعف وعدم القـدرة على اتقائه . إنـه بـرسمه هـذه الصـورة المعبرة المثيرة قد بلغ المراد الفنى والموضـوعى ، واستطاع بريشته المتوترة المتوجعة إيصال رسالته .

● ● ●

وصف الديار

لعروة بن أذينة (*)

بَلْ هَلْ عَرَفْتَ لَهَا الدِّيارَ بِنَاعِقٍ ... مَعْفُوَّةً لَبسَ البِلَى أطلالَهَا

وَتَنَاءَجَتْ فيها البوارجُ كُلُّها ... راحَتْ تَحِنُّ تَعَسَّفَتْ أَذْيالَهَا

يَسْهَكْنَ أَمْثالَ الرَّوائِمِ وُلَّهاً ... فقدتْ - فرجَّعَتِ الحنينَ - فِصَالَهَا

في كُلِّ مَنْزِلَةٍ لَعِبْنَ بِدِمْنِها ... وَخَلَصْنَ إذْ خَفَّ الدُّقاقُ جُلالَهَا

ثُمَّ استعنَّ على الدِّيارِ مُخيلَةٌ ... حَلَّتْ على عَرَصَاتِها أَثْقَالَهَا

دهماءُ واهيةُ الكُلَى بَحْرِيَّةٌ ... نَخَرَتْ بها المُسْتمطرات هِلالَهَا

فإذا يَمُرُّ لَهَا حَبِيٌّ زاخِرٌ ... بالدَّارِ جادَ بِوَبْلِهِ فَأَسَالَهَا

فَتَرَكْنَها صَلْدَى العِراصِ وَطَلَّقَتْ ... أَدْبارَها وَرَوَاجِعاً أَقْبَالَهَا

فَتَظَلُّ تَعْرِفُ ما عَرَفْتَ تَوَهُّماً ... مِنْها وَتُنْكِرُ واقِفاً أَبْدالَهَا

(*) هو عروة بن أذينة بن مالك بن الحارث الكناني ، معدود فى الفقهاء والمحدثين ، ولكن الشعر غلب عليه ، توفى في حدود عام ١٣٠ للهجرة ، له ديوان مطبوع .

معانى المفردات : ناعق : اسم مكان . تناءجت : تحركت ، وريح نؤوج ولها نئيج : أى مرٌّ سريع مع صوت . البوارج : شدة الرياح من الشمال فى الصيف ، وقيل هى الرياح المحملة بالتراب . يسهكن : يعصفن بشدة ، وريح ساهكة : عاصفة شديدة . الروائم : مفرد رائم : من العطف والحنو .

المخيلة : السحابة المتهيئة للمطر .

الكلى : جمع كلية وهو أسفل السحاب .

الحَبِيُّ : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض .

يتساءل عروة بن أذينة عن هذه الديار بناعق التى عفى عليها البلى ، ولبس أطلاها ، هل عرفت هذه الديار ؟

فما الذى ألبسها البلى ، وتركها أثرًا بعد عين ؟ يجيب الشاعر وقد رأى ماحل بديار الحبيبة بأن الرياح والأمطار مسؤولتان عن تغيير معالم هذه الديار ، وفى لقطتين تصويريتين يقدمهما الشاعر لنا فى إطار مكانى وزمانى ، فالمكان ناعق ، والزمان وقت هبوب رياح الشمال أى بداية موسم الشتاء ، وهذه اللقطات المتحركة التى رسمها لنا ، وظف فيها الحركة والصوت أجمل توظيف ، وأخرج من المعنويات محسوسات تؤكد على هذا الابتكار التصويرى الرافض لمقولة جمود إحساس الشاعر العربى بالطبيعة ، وإنه حين يصف مظاهرها يصفها من الخارج جامدة لاحركة فيها .

فهذا عروة يرسم بقلمه هذه الصورة الحية المتحركة رسم راءٍ خبير ، فالرياح هى الساكن الجديد ، بعد أن رحل أهل الديار ، إذن الشخصية التى تظهر لنا على المسرح شخصية الرياح المتعددة القبائل ، فقبيلة الصبا والدبور وقبيلة رياح الشمال والجنوب ، حلت محل السكان الأصليين ، وأرادت أن تحتفل بهذا الموطن الجديد فماذا كان ؟

لقد تداعت الرياح إلى هذا الاحتفال التدميرى ، فرياح الجنوب لم تكتف بما فعلته بل استضافت رياح الشمال ، كما تستعين قبيلة بقبيلة على الحرب ، لتكونا أقوى وأشد فى مواجهة العدو ، وتبدأ هذه الحرب حين تأخذ العواصف فى طريقها كل شىء فتدمره ، وتصطك أسماعنا بتلك الصورة الصوتية الحزينة ، أصوات الإبل الوالهة وترجيع الحنين من فصالها ، إنه صوت الشاعر الحزين لما حل بهذه الديار انسحب على الطبيعة ، وكأن مظاهر الطبيعة تشاركة هذا الألم ، ويعود الشاعر إلى حركة أخرى من حركات الحرب ، وهى حركة العدو عندما يشتد ويسيطر وينتصر حيث يبدأ يلهو بأعدائه ، فهذه الرياح وقد سيطرت ودان لها المكان ، أخذت تفعل فعل المنتصر ، فهاهى ذى تلهو وتتلاعب بالدمن ، فتجلس رياح الجنوب عن اليمين ، ورياح الشمال عن الشمال يتعاورن الغرابيل كالطحانات وهن ينخلن رملها وترابها ، إن هذه الحركة المسرحية التشخيصية تعطى هذا الشعر ديمومة واستمرارية ، وتؤكد مقولتنا باكتنازه وعمق أسراره وثرائه .

ويبدو أن فعل الرياح وحركتها لم يقنع الشاعر بعمق التغيير الذى حصل لهذه الديار ، فلابد أن الرياح قد استخدمت أسلحة أخرى أو استعانت بقبيلة من القبائل الجمرات التى يستعان بها ولا تستعين بأحد .

وهذا ما يظهره لنا فى اللقطة الثانية :

ثم استعن على الديار مخيلة　　　حلت على عرصاتها أثقالها

وكأن محو معالم الديار لايستتم صورته بما فعلته الرياح ، فكان لابد من الأمطار الشديدة التى تطمس الظاهر ، وتجرف الشاهد والساتر ، وتغير معالم الديار .

ونشاهد المطر وقد حل ضيفًا على الرياح ، وما أن دخل أرض المعركة جتى أنشب أسلحته وبدأ يذبح وينحر حتى أنه ذبح ماتبقى من بصيص نور للتعرف على آثار هذه الديار، نعم لقد تم ذبح الهلال ، وساد الظلام ، وأخذ السحاب المتراكم الحبيُّ يلطم وجه الأرض ، ويأخذ برأسها ويجرّها .

هذا الحلف العسكرى بين الرياح والمطر ، ترك الديار قاعًا صفصفًا ، ولما وقف عليها الشاعر لم يتبين حالها ، فتوهمها توهمًا :

فتظل تعرف ماعرفت توهُّمًا　　　منها وتنكر واقفًا أبدا لها

إضاءة :

إن عروة بن أذينة يخلب ألبابنا بألفاظه الغزلية حين يقول :

ويبيت بين جوانحى حبٌّ لها　　　لو كان تحت فراشها لأقلّها
ولعمرها لو كان حبّك فوقَها　　　يومًا وقد ضحيت إذًا لأظلّها
وإذا وجدت لها وساوس سلوةٍ　　　شفعَ الفؤادُ إلى الضمير فسلِّها

فما باله يتخلى عن تلك الأناقة ؟ ويبتعد عن ذلك الصوغ الفنى الحضرى ؟ أسلبته الرياح ذوقه ؟ أم ألبسته هو الآخر البلى كما ألبست الأطلال ؟

بلاشك فالموضوع يفرض أدواته ولكل حادث حديث ،فألفاظ مثل : ثناءجت ، تعسفت ، يسهكن ، تدل على أن لكل مقام مقال ، وإن تآلف الألفاظ مع الموضوع يؤكد على نجاح التعبير .

وما يلفت حواسى جميعها فى هذه القصيدة هو القدرة التصويرية البارعة التى تظهر من خلال الآتى :

١ - من خلال حركة الفعل المضارع الذى يصور لنا حدثًا مرئيًا مشاهدًا ، فصورة الرياح وهى تعفى وتتعسف وتدمر وتسهك ، صورة حالية متمثلة فى عين الرائى .

٢ - من خلال الإيقاع ، فالكامل بحركته المترددة بين الارتفاع والهبوط يؤكد على حركة الرياح المضطربة المعسفة الشديدة ، أما القافية الهائية الممتدة مقبلة ومدبرة وكأن الرياح تسوقها ، تضيف معنى ذا بال فى تحريك مقاطع الصورة .

٣ - هذه الحروف الحلقية التى تكاد القصيدة تغص بها من همزة وهاء وعين وحاء وغين وخاء لتوحى بأصوات الرياح والدمار الذى حل بهذه الديار .

وأمثل على ذلك بحرف الهاء الذى اعتمده الشاعر قافية لهذه القصيدة فهو يظهر فى ألفاظ كثيرة ، لنأخذ عليه هذا البيت ، وهو قوله :

دهماء واهية الكلى بحرية   نحرت بها المستمطرات هلالها

ففى بيت واحد يتكرر الحرف خمس مرات ، وانظر حرف العين فى الألفاظ التالية : « عرفت ، ناعق ، معفوة ، تعسفت ، تعفو ، يدعو ، رجعت ، لعين تعيرها » وتلحظ معى تكرارها فى هذا البيت :

ثم استعن على الديار مخيلة   حلت على عرصاتها أثقالها

وانظر إلى تكرار حرف الحاء والخاء فى هذه البيتين :

وتناءجت فيها البوارج كلّها   راحت تحن تعسفت أذيالها

وقوله :

ونخلنها نخل الطحين مقيمةً   كل الرياح تعيرها غربالها

٤ - من خلال الصوت ، فالصورة السمعية المتمثلة فى قوله :

يسهكن أمثال الروائم وُلّهاً   فقدت - فرجعت الحنين - فصالها

تتمثل فى تشبيه صوت الرياح المغيرة على هذه الديار بصوت حنين الإبل الوالهة الثكلى ، وهذا الصوت القوى الحزين هو صدى لحزن الشاعر ، فإيقاع الصورة الحزين يظهر من خلال هذا الصوت .

٥ - أما من خلال التشخيص فذلك هو الفن الخالص ، ومتّع بصرك معى فى هذه اللقطات :

- الريـاح المتعاورة كامـرأتين واحدة تسير فيبدو أثـرها على الأرض ، والثانيـة من خلفها تعفى على هذا الأثر وتخفيه :

تعفو الصبّا ذيل الدبور وتارةً   يدعو لها نفس الجنوب شمالها

ويتضح أثر البيئـة فى هذه الصورة من خلال وقـائع المحبين الذين يعفون آثار محبـوباتهم بعد كل موعد ، خوفًا من اكتشاف أمرها ، وقد يكون لذلك ارتباط بالقيافة وماعرف عند العرب من تعرف الأثار ، وكأن الرياح تحاول إخفاء آثار جريمتها حتى لاتؤخذ بها .

- جلـوس الـرياح فى الطلل واللعب بـدمنـه ، وهـذه الصـورة أيضًا من الصـور البيئيـة المألوفة، فالفتيات يلعبن بالدمى ، والحيوانات تداعب بعضها ، وكذلك الرياح .

- تشبيه الـرياح بالطحانـات ، وهنا حذف للمشبـه به وإبقاء على شىء من لوازمـه وهو نخل الطحين ، فالاستعارة مكنية ، وما يهمنا هنا هو ذلك التشخيص البديع فى جلوس الرياح ينخلن الطحين ويتبـادلن الغـرابيل ، صورة حسيّـة تشخيصيـة ، أخرجـت المعنوى إلى الحيـاة وجعلته يفعل فعل الأحياء .

• • •

رسالة فى القضاء

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك . أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فأفهم إذا أدلى إليك ، فإنه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس بوجهك ، وعدلك ، ومجلسك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك، ولاييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحًا أحل حرامًا ، أو حرم حلالاً . لايمنعك قضاء قضيته اليوم فرجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولاسنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك . واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهى إليها ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية : فإنه أنفى للشك ، وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد ، أو مجربًا عليه شهادة زور ، أو ظنينًا فى ولاء أو نسب . فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والإيمان . وإياك والغلق والضجر ، والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق ليعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، والسلام عليك .

التأسي : أن يرى ذو البلاء من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه فيسكن ذلك من وجده : قالت الخنساء : فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى .

تلجلج : تردد ومن أمثال العرب : الحق أبلج والباطل لجلج .

ظنينًا فى ولاء : المتهم وجاء عن النبى : ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه أو ادعى إلى غير مواليه .

درأ : دفع : قال تعالى : ﴿ قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ .

الغلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر . تخلق : أظهر للناس خلاف نيته ، وقال ذو الأصبع : كل امرىء راجع يومًا لشيمته وإن تخلق أخلاقًا إلى حين .

« رسالة عمر بن الخطاب »

هـذه الرسـالة المحكمـة النسج ، المضيئة النهج ؛ البينـة المبنى ، الواضحـة المعنى ، هى القول الفصل فى القضاء والعـدل ، جمعت الظاهر والنافر ، والشارد والـوارد ، وأبانت بعبارات سـاطعة ، ودلالات قـاطعـة الضوابـط والحدود فلم تترك كبيرًا ولا يسيرًا إلاَّ وضعته فى إطـاره ، فدقيق الأمـور مثل جليلها ، فالبسمـة من وجه القـاضى فى وجه أحد الخصـوم تصبح كالحكم النافذ عند الخصم الثانى .

ولعل هذه الرسالة تكاد تكون أشبه بمقالـة فى القضاء من كونها رسالة شخصية ، فبناؤها الفنى المكون من مقدمة وعرض وخاتمة ، ثم هذا التسلسل الواضح من :

١ - بداية مجلس القـاضى للقضاء ومرورًا بوقـوف المتخاصمين أمامه ، وإقـامة البينة أو حلف اليمين ، وانتهاءً بالصلح أو القضاء .

٢ - مراجعة الحكم من قبل القاضى نفسه .

٣ - المصادر التى يعتمـد عليها القاضى فى حكمـه وهى : « كتاب الله ، وسنة رسـوله ﷺ ، ثم العلم والمعرفة والاجتهاد والقياس .

٤ - القضايا محدودة بأمد ، والبينات والأدلة كذلك .

٥ - المسلمون عدول ، إلا من حد بحد ، أو شهـد زورًا أو كان ظنينًا فى نسبه .

٦ - وأخيرًا سعة صدر القاضى ، وإقباله على القضاء .

وقد استهدفت هذه الرسالة تـوجيه النظام القضائى من خلال هذا التسلسل الواضح فى تحديد الأسس والأهداف ، ولعل أهم هذه الأسس مايلى :

أولاً : تحديد اختصاصات القاضى فى الآتى :

(أ) المصادر التى يعتمد عليها فى حكمه وهى : الكتاب والسنة والاجتهاد والقياس .

(ب) معاملة الخصوم بالتساوى ودون تمييز حتى فى الابتسامة .

(جـ) مايتعلق بشخصه من سعة الصدر وإقباله على القضاء ، ومراجعة الحكم .

ثانيًا : مايختص بالقضية :

(أ) مراجعتها .

(ب) حدودها ، وتحديد زمن إحضار البينات والأدلة .

(جـ) الإصلاح .

ثالثًا : فى الشهود :

المسلمون كلهم عدول إلا من حُدَّ أو جرب عليه شهادة زور .

إن هذا الدستور العمرى الموضوع للقضاء ليبين فى مضمونه عن أقصى درجات الضبط والعدالة ، فضبط الأسس يمضى على ما مضى فى كتاب الله وسنة رسوله ، أما ما لاينضبط كالميل والهوى ، ومراجعة الحكم ومعاملة الخصوم ، فقد شدد عليه وأبان عن أهميته للقاضى والقضية ، فميل القاضى وضعفه ، يؤدى إلى ضعف شخصيته وعدم احترامه من قبل الخصوم ، فيُطمع فيه أو ييأس منه ، أما القضية فتيمع وتضيع .

أما وضوح مفردات هذه الرسالة فيتبين لنا من خلال هذه الألفاظ البينة ولعل ألفاظًا مثل « فافهم البينة ، الفهم الفهم ، هديت لرشدك ، فراجعت ، ترجع ، اعرف ، أقربها » تبين هذه السمة ، فإذا كان عمر بن الخطاب ﷺ عنه يدعو إلى التبين والفهم والهداية ومراجعة النفس ، فإنه بلاشك لن يستخدم من الألفاظ حواشيها وغريبها ، وهو الذى أثنى على الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى بأنه « لايعاطل فى المنطق ، ولايتبع حوشى الكلام » .

لم يجر أسلوب هذه الرسالة على طرائق السجع ، أو الإزدواج ، وإن ظهر فى بعض العبارات ، فن التنويع فى الفواصل ، واختلاف نهايات الجمل قد جعل هذه العبارات تتمتع باستقلالية ، فكل عبارة تامة قول فصل ، وكأنه ﷺ يرسلها أحكامًا أو أمثالاً بصياغة متقنة ، وعرض جلى ، فى جمل قصيرة بينها تناسب كقوله : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » وقوله : « إلا مجلودًا .. و مجربًا .. أو ظنينًا .. » ومن أمثلة الإزدواج قوله : « حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولاييأس ضعيف من عدلك » فانظر إلى هذا التقسيم وذلك التساوى فى الألفاظ مما يؤدى إلى إيقاع نغمى هادىء .

وتطل علينا ومضات بلاغية رائعة من خلال تجانس الألفاظ وتطابقها وتقابلها ، فالجناس اللطيف يتبين فى : « الصلح ، صلحًا ، حرامًا ، حرم ، قضاء ، قضيته » والطباق فى قوله : « يطمع وييأس ، شريف وضعيف ، حيفك وعدلك ، أحل ، حرم ، أنفى ، أجلى » ومع هذه الألوان البديعية إلا أننا لانحس بالتكلف ، أو محاولة التزويق والتنميق ، وأخيرًا فإن الاقتباس والتضمين من حديث رسول الله ﷺ ، وهذه العلامات الساطعة والإشارات الواضحة لتجعل هذا النص من النصوص التى بلغت الشأو فى حسن مدخل ، وإيجاز عبارة ، واستوعبت على قصرها الخطوط العامة والقواعد الأساسية الضابطة للقضاء .

من خطبة أبي حمزة الشاري(*)

شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشرِّ أعينُهم ، ثقيلةٌ إلى الباطل أرجلهم ، أنضاءُ عبادةٍ ، وأطلاحُ سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلَّما مرَ أحدُهم بآية من ذكر النار ، شَهَقَ شهقَة كأنَّ زفيرَ جهنم بين أذنيه ، موصولٌ كلالٌ لَهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفَهم وجباهَهُم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السِّهام قد فُوِّقَتْ ، والرِّماحَ قد أُشرِعَتْ ، والسيوفَ قد انتُضِيَتْ ، ورعدت الكتيبة بصواعقِ الموتِ وبَرَقَتْ ، استخفّوا بوعيدِ الكتيبةِ لوعدِ اللهِ .

ومضى الشابُ منهم قُدُمًا حتى اختلفت رِجْلاهُ على عنق فرسه ، وتخضَّبَتْ بالدِّماء محاسنُ وجهِهِ ، فأسرعتْ إليهِ سباعُ الأرضِ ، وانحطَّت إليْهِ طيرُ السَّماء ، فكم من عين فى منقارِ طيْرٍ بكى صاحبُها فى جوف الليل من خوف اللهِ ، وكم من كفٍّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال : أوه .. أوه .. أوه .. ثم بكى ، ثم نزل [1] .

(*) هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدى البصرى ، ثائر من الفتاك ، ومن الخطباء ، أخذ بمذهب الأباضية ، وتوجه من حضرموت لقتال مروان بن محمد ،واحتل فى طريقه مكة والمدينة ، وعلى منبر الرسول ﷺ كانت هذه الخطبة ، فأرسل له مروان جيشًا ألحق به هزيمة فى معركة قديد ، ثم قتله فى مكة عام ١٣٠ هـ .

(١) البيان والتبيين ج٢ ، ص١٢٢ .

شباب مكتهلون

« لأبى حمزة الشارى »

إن هذا النص الخطابى الوصفى يوضح لنا صفات وأخلاق وأعمال ونيات وأهداف هؤلاء الشباب الذين خرجوا جهادًا فى سبيل الله ، وهو وثيقة سجلت بافتخار ما امتاز به هؤلاء من قيم ، وماتفردوا به من عزم وتصميم ، « فهم شباب أطاعوا الله ، واستقلوا فى جنبه كل مشقة ، يتأوهون عند سماعهم ذكر الله وكأن جمر غضى فى صدورهم - وإذا مر بآية تذكره بالنار خرَّ مغشيًا عليه من الخوف - ولاتكاد تراهم إلا بين ساجد وراكع ، نحيبهم يبلل الخدودخشوعًا وتضرعًا ، شباب إلاّ أن أخلاقهم أحلام كهول ، لايدنون من حرام ، ولايحومون حول شبهة ، وهمهم عبادة الله فى الليل والنهار ، موصول كلال الليل بكلال النهار ، أكلت الأرض من أرجلهم وأيديهم حتى صارت كثفنات الإبل ، يفرحون للقاء الله إذا أرعدت الكتيبة بصواعق الموت ، وليس أسر لهم من طعنة غموس ترديهم ، فتسرع إليهم سباع الأرض ، وتحط إليهم طيور السماء « فتوزعت أعضاؤهم غنيمة لهذه الطيور ، فتلك العيون الباكية غدت فى مناقير الطيور ، وتلك الأكف التى اعتمدوها فى الطاعات ، زالت من مكانها .

وعندما يصل إلى هذا المشهد ، يبكى ويتأوّه ويقطع الخطبة . من خلال هذا النص نستطيع أن نلحظ قيمتين قامت عليهما الخطبة :

أولاً : قيمة موضوعية ، تظهر من خلال وصف هؤلاء الشباب ، وإظهارهم بمظهر المتمسكين بعقيدتهم ومبادئهم، والثبات على ذلك، والخروج من أجله حتى لو أدى إلى الموت.

ثانيًا : قيمة فنية ، تتضح من خلال هذه الأسلوب المتميز فى العرض ، الجديد فى الأداء ، المصحوب بنفس مصبوغ بروح الإيمان والتضحية ، الدقيق فى وصف الشخصية الخارجية وصفًا يكاد يأتى عليها ، فظاهرها ومضمرها ، وغايتها وأهدافها وسلوكها وأعمالها ، تتضح لنا من خلال هذا النص ، أما أسلوب الخطبة فهو أسلوب أغلبه إنشائى وصفى تقريرى ، يستمد من آيات الكتاب الكريم وصف المؤمنين ، فيضمن ذلك خطبته ، ويقتبس من معانى وألفاظ القرآن الكريم ويوظف ذلك فى وصف رجاله ، والسجع فى الخطبة قريب غير متكلف جاء عفو الخاطر ، إذ نراه لايسير عليه ، بل نراه يغير ويبدل فى أواخر الجمل دون أن يلتزمه .

وتمتاز الخطبة بوحدة الموضوع وعدم الدخول فى مقدمات ، وإنما هجوم على الموضوع ، فالبداية « شباب والله مكتهلون » حتى انتهى ، فالخطبة لم تبدأ بمقدمة ثم تنتهى بخاتمة وبينهما عرض ، وإنما اكتفى هنا بالعرض بدءًا وعرضًا وختامًا .

كما تتميز بالإيجاز الموفى بالغرض ، وحدّة العاطفة وحرارة الشعور ، واللمحة الدالة ، أما ألفاظها وتراكيبها فبينة واضحة ، لاغرابة فيها ولاغموض ، وأخيرًا فإن الترابط بين الفكرة وبناء الخطبة جاء فى غاية الانصهار وكأنه يضع فى هذا النص صورة النموذج الأمثل للطاعة والهداية والجهاد .

● ● ●

تأبين فرغانة للأحنف بن قيس

قامت فرغانة بنت أوس بن حجر [١] على قبر الأحنف بن قيس [٢] وهى على راحلة فقالت:

إنا لله وإنا إليه راجعون . رحمك الله أبا بحر من مجن فى جنن [٣] ، ومدرج فى كفن ، فوالذى ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميدًا ، ومت فقيرًا ، ولقد كنت فى المحافل لشريفا ، وعلى الأرامل لعطوفًا ، ومن الناس لقريبًا ، وفيهم لغريبا ، وإنك كنت لمسودًا ، وإلى الخلفاء لموفدا ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين ، ثم انصرفت .

إضاءة :

فصيحة بنت فصيح تقف على قبر ملئ فصاحة وحلمًا ، وشجاعة وكرمًا ، بنت شاعر فذ من أفذاذ شعراء الجاهلية ، وأستاذ زهير بن أبى سلمى ومعلمه الشعر وزوج أمه ، نُسبت إليه مدرسة التنقيح أو الحولى المحكك .

وابنته فرغانة أدركت الإسلام وأسلمت ، وتدل هذه القطعة الرثائية على هذا الإرث ، إرث الفصاحة التى تسلمته لسانًا عن لسان .

تبدأ هذه الوقفة على قبر من ضرب به المثل فى السماحة والحلم ، فقيل : « أحلم من الأحنف » بابتداء مندوب إليه ، إنها فى هذا الابتداء تتمثل الآية الكريمة ،﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

نعم إن وفاة سيد تميم ، وعميد الحلماء ، ورأس الحكماء وزمين الفصحاء ، لهى مصيبة ، ولكن المؤمن يسترجع ، فكلنا إلى الله راجع .

---

(١) أوس بن حجر : هو الشاعر الجاهلى أوس بن حجر بن عتاب التميمى جعله ابن سلام فى الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية ، وُصِفَ بأنه أشعر الناس فى الجاهلية قبل ظهور المقدمين وله ديوان شعر مطبوع .

(٢) هو صخر أو الحرث أو حصين بن قيس بن معاوية أبو بحر السعدى التميمى المعروف بالأحنف سيد أهل البصرة الذى يضرب به المثل فى الحلم والوقار . أدرك عصر النبى ﷺ ولم يره ، روى الحديث وشهد صفين مع على بن أبى طالب رضي الله عنه ، وقدم على معاوية فى خلافته ، وتوفى رحمه الله سنة اثنتين وسبعين للهجرة ، كان أحنف الرجلين معًا ، وهو الذى فتح مرو وبلخ ، وكان رجلاً حليمًا بليغًا ، ومن كلامه : ماخاف شريف ، ولاكذب عاقل ، ولااغتاب مؤمن ، وكان يقول : وجدت الحلم أنصر لى من الرجال .

(٣) مُجَن : مستور . الجنن : القبر .

وتثنى بالـدعاء له بـالرحمة كنيةً لااسماً تقديـراً وتكريماً » رحمك الله أبا بحـر س وكأن هذه الكنية تـدل على هذا الفياض ، الذى غـاض بعد أن كانت أمـواج سببه وحلمه غامـرة ، وهذا النداء القريب دلالة على الحضور .ثم تُثَلّثُ بتأبينه ، والحديث عن صفاته ومحاسنه التى جمعتها فى مزدوجة مختصرة فصيحة .

فبعـد أن خاطبتـه بكنيته ، ذكـرت حـالته التى هـو عليهـا الآن ، فلئن كان مستـورًا عن العيون، غائبًا عن الأنظار تحت هذا الركـام ، فإنها تقسم صادقة بالله الذى ابتلى القبيلة بفقده ، أنه عاش حياة حميدة ما ذُمِّم فيها ، وغاب فافتقده الجميع ، ونستطيع من هذا الإيجاز بين عيش حميد ، وفقـد عند الموت شديد أن نتبين تفصيـلاً كبيرًا ، فحمده الناس لخلال الكـرم والسماحة والرئاسـة والشجاعـة ، وافتقده كل ذى حـاجة إلى معـونة فى المال والـرأى ، ويتضح ذلك من وصفهـا له بأنـه رجل المحافل العطـوف على الأرامل ، قريب وغـريب فى آن واحد من النـاس وفيهم ، قريب لكل محتـاج غريب المثـال ونادر النموذج ، وهـو وافد قومـه إلى الخلفاء ، يُسْمعُ رأيه ويُتّبَع .

وإذا كانت هذه القطعـة تمتاز بهذه القدرة فى اختصار هذه المعـانى الكثيرة فى هذا القول القليل ، فإن ابتداءها وتسلسلهـا ، ثم هذا الإزدواج بين هذه الجمل المتآلفة ، والصفـات الدالة يعنى الإيجاز التام المكتمل الذى يخفى بين طياته إطنابًا غير مملول .

• • •

حسّان بن ثابت رضي الله عنه

يمدح رسول الله ﷺ

● **لمحة عن حياة الشاعر :**

هو حسان بن ثابت بن المنذر ، وهو من بنى النجار من قبلة الخزرج القحطانية ، ولد فى المدينة المنورة ولا يعرف بالتحديد سنة مولده ، ولكنه توفى سنة (٥٤ هـ) .

عاش حسان مائة وعشرون سنة منها ستون فى الجاهلية ومثلها فى الإسلام ، وذكر الأصفهانى فى أغانية « أنه عمر عشرين ومائة سنة ، ستين فى الجاهلية وستين فى الإسلام ، وفضل الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى فى النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام »[(١)] .

التزم حسان رضي الله عنه بعد إسلامه بالدفاع عن الإسلام ، « وكان النبى ﷺ يشجع حسانًا على هجاء قريش ويدعو له فكان يقول له : شن الغطاريف على بنى عبد مناف فوالله لشعرك أشدّ عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام وتحفظ بيتى فيهم . قال : والذى بعثك بالحق نبيًا لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين، ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفة وقال: والله يارسول الله إنه ليخيل لى أنى لو وضعته على حجر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ، فقال النبى ﷺ : أيّد الله حسانًا فى هجوه بروح القدس »[(٢)] .

له ديوان شعر مطبوع حققه السيد عبد الرحمن البرقوقى سنة ١٩٢٩م فى مصر ، وهناك طبعة أخرى للديوان طبعت فى بيروت سنة ١٩٧٤م بتحقيق الدكتور وليد عرفات .

وحققه الدكتور سيد حنفى حسنين ونشرته دار المعارف بمصر ١٩٨٣م

---

(١) الأغانى – دار إحياء التراث العربى ، ج٤ ص١٣٧ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٧٨ وانظر : صحيح مسلم فى باب فضائل الصحابة رقم ٢٤٩٠ .

● دراسة القصيدة :

يقول الشاعر :

عَفَتْ ذَاتُ الأصَــــابِعِ فَالجِــوَاءُ ، ... إلى عَـــذْرَاءَ مَنْــزِلُها خَـــلاءُ(١)

دِيَــارٌ مِنْ بَنى الحَسْــحَاسِ قَفْــرٌ ، ... تُعفيّهـــا الـــرّوامِسُ وَالسّماءُ(٢)

وكـــانَتْ لا يَـــزَالُ بِهَا أنِيسٌ ، ... خِــلالَ مُــرُوجِهـا نَعَمٌ وَشَــاءُ(٣)

فَــدَعْ هــذا ، ولكِنْ مَــنْ لِطَيْفٍ ، ... يُـــؤرِقُنى إذا ذَهَبَ العِشـــاءُ

لِشَعْثـــاءَ التى قَـــدْ تَيَمّتْـــهُ ، ... فَلَيْسَ لِقَلْبِـــهِ مِنْهَـــا شِفـــاءُ

كَـأنّ سَبِيئَـــــةٌ مِـنْ بَيْـتِ رَأْسٍ ، ... يَكُــونُ مِـــزَاجَهَـــا عَسَلٌ وَمَـــاءُ

على أنْيَـــابِها ، أوْ طَعْمَ غَـضٍّ ، ... مِـنَ التّفّـــاحِ هَصّرَهُ الجَنَـــاءُ

إذَا مـا الأشْرِبَــاتُ ذُكِـرْنَ يَــوْمًا ، ... فَهُـنّ لِطَيّبِ الـــرّاحِ الفِـــدَاءُ

نــوَلّيهـــا المَلامَــــةَ ، إنْ ألَمْنَـا ، ... إذا مَـــا كـــانَ مَغْثٌ أوْ لِحَـــاءُ

ونَشْـــرَبُهَـــا فَتَتْرُكُنَـــا مُلُوكًـــا ، ... وَأُسْـــداً مَـــا يُنَهْنِهُنَـــا اللّقَـــاءُ

القصيدة من بحر الوافر ، وقافيتها مطلقة مردوفة بالألف متصلة باللين وهو الواو الناشئة من إشباع ضمة الروى وهو الهمزة .

والمطلع مقفى حيث تتفق قـافيـة الشـطر الأول مع قـافيـة القصيـدة فى النـوع واللقب والروى.

وقد وردت فى بحر الوافر أكثر حماسيات العصر الجاهلى والإسلامى .

والمقدمة طلية غزلية خمرية ، وبينها وبين مقدمة همزية زهير بعض الاتفاق . ولاشك أن حسانًا قد نظر فى قصيدة زهير ، وتأثر بها ، وقد تكون همزية حسان معارضة لهمزية زهير .

يقول زهير :

عَفَا مِنْ آلِ فاطمةَ الجواءُ ... فيمنٌ فالقوادمُ فالحسَاءُ

---

(١) ذات الأصابع الجواء : موضعان بالشام بالقرب من دمشق ، وعذراء : موضع قريب من دمشق .

(٢) الروامس : الرياح التى تثير التراب فتدفن الآثار ، والمراد بالسماء هنا المطر .

(٣) النعم : الإبل ، والشاء : الغنم .

ونرى أن اختيار هذا المطلع ليكون مقدمة لتلك القصيدة يتضمن مغزًى ، أو شفرة تتعلق برؤية شديدة الخصوصية كان الشاعر قبل الإسلام يضمنها شعره .

فالشاعر قد انتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن حياة الجاهلية بكل مايتعلق بها من لهو وانطلاق وإحساس بالتناهى والفناء ، وخوف من الموت والدثور إلى حياة الإسلام وما فيها من وضوح الرؤية وإيمان بالله الخالق وبالبعث والحياة الأخرى .

الشاعر هنا يعبر عن وقوف على أطلال حياة مضت ، فالجاهلية قد عفت ، وعفت معها حقبة من حياة الشاعر . الأطلال هنا ليست رمز لديار تركها الشاعر ، فالشاعر هنا مدنى يعيش فى يثرب مدينة الرسول ﷺ ، والشاعر الحضرى يقف على الأطلال رمزًا ، وحسان هنا يقف على أطلال تلك الجاهلية التى نقضها الإسلام ، وبهذا لانشعر بحنين من الشاعر لتلك الأطلال ، ولانشعر بحزن عميق كذلك الذى نجده عند امرؤ القيس حين قال فى مطلع معلقته [1]:

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقوفًا بها صحبى علىّ مطيهم ... يقولون لاتهلك أسىً وتجملِ

ولم يقف حسان مجيبًا الطلل وداعيًا له بالسلامة والنعيم كما فعل امرؤ القيس فى لاميته حيث يقول [2]:

ألا عم أيها الطلل البالى ... وهل يعمن من كان فى العُصُر الخالى
وهل يعمن إلا سعيد مخلد ... قليل الهموم مايبيت بأوجال

يقول شارح الديوان : دعا الشاعر للطلل بالنعيم ، وأن يكون سالمًا من الآفات ، وهذا من عاداتهم ، كأنهم يعنون بذلك أهل الطلل ، وقوله : وهل يعمن ، يقول : قد تفرق أهلك وذهبوا فتغيرت بعدهم عما كنت عليه ، فكيف تنعم بعدهم ، وكأنه يعنى بذلك نفسه فضرب المثل بوصف الطلل » [3].

---

(١) الديوان ص ٦٢ .
(٢) الديوان ص ٩٧ .
(٣) ديوان امرؤ القيس ص ٩٧ .

إذن نحن أمام مقدمة طلية تتميز عن النموذج الـذى رسمه شاعر الجاهلية القديم ، وقد رأينا أن الشاعر يرمز بالطلل إما لأهل الطلل ، أو لنفسه هو ، فقد أدرك الشارح القديم لديوان امرؤ القيس أن الشاعـر حين توجه يناجى الأطـلال كان يرمز ضمنـا إلى ذاته هو ، تلك الذات التى لم يبق منها غير أطلال بعد أن تفرق عن الشاعر أو الطلل - الأهل والأصحاب - وذهبت دولتهما وبهاؤهما .

وتبدو الأطلال عنـد حسان رمزًا لتلك الحقبة التى مضت قبل الإسـلام ، والتى قد تكون النفس قـد تعلقت بها فى فترة مـن الـزمن ، لكننـا لا نشعـر عنـــد حســان بحب لهذا الطلل ، ولانشعر عنده بأى نـوع من التعاطف ، فالأطلال تقترن بـالجاهلية والغواية ، ،وبحيـاة جاهلية لامكان فيها للأمن والسلام والتعاطف ، بل الغلبة للأقوى .

أمـا حـديثه عن المرأة التـى تيمت ، فإن اسمهـا «شعثاء» والشعثـاء من النســاء : المغبرة الرأس والمتلبدة الشعر . والشعث تفرق الأمر وانتشاره وخلله .

فشعثاء صـورة أخرى للجـاهلية بما فيهـا من فوضى ، وبما فيهـا من ملذات ومغـريات ، ونحن لانشك أن تلك الحياة الجاهلية قد كابدها المخضرمون من الشعراء ، وهـم حين تجاوزوها لم يبق منها عندهم سوى صورة لحياة مضت ، قـد يذكرونها بما فيها من مفارقات ، ومايقترن بها من لهو وخمر وغير ذلك .

فشعثــاء تلك التى تيمت ، وتيمت فى القامـوس عَبَّدَتـه وذللته ، والتيهاء : الأرض القفـرة المضلة المهلكة ، ولاشك أن قوله : « لشعثاء التى قد تيمت » يحمل مضمونًا غير الذى يبدو لنا من استعمال الفعل «تيم» دالاً على الإشبـاع والارتواء من الملـذات ، فهـو هنا لايـدل على غير ذلك ، بل يقترن بالـذل والعبودية والضلال والهلاك ، واختـلاف الوعد ، وهو صـورة للجاهلية الشعثاء التى أذلـت الجاهلية واستعبدتهم وأضلتهم فى الـوقت الذى ظنـوا فيه أنهم قـد حققوا مايريدون .

وأما حـديثه عن الخمر فإنه يبـدو وكأنه يحمل شفرة شـديدة الخصوصية لاتظهـر لنا من قراءة القصيدة فقط ، بل من وضع القصيدة متجاورة مع نصوص آخر تركها الجاهليون بعضها تغنى فيهـا أصحابها بالخمـر ، وغيرهم تحدث عن العـالم الزائف الخادع التى تصنعـه الخمر فى نفس صاحبها .

يقول امرؤ القيس [1] :

ونشرب حتى نحسب حولنا نِقَاداً ، وحتى نحسب الجون أشقرا

ونرى المتنخل اليشكرى يتحدث عن الوهم الذى تصنعه الخمر فى نفس صاحبها فيقول:

فإذا انتشيت فإننى ربُّ الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإننى ربُّ الشويهة والبعير

فالخمر تصنع عالمًا زائفًا فى نفس صاحبها ، ولاشك أن شاربها حين يفيق من ذلك العالم الزائف يجد نفسه محاطًا بالواقع الذى حاول - دون جدوى - أن يفارقه ؛لأنه اتخذ وسيلة قاتلة لنسيان واقعه .

وحسان يكشف عن الأثر الزائف للخمر ، حين قال :

نوليها الملامة إن ألمنا إذا ما كان مغثٌ أو لحاءُ

ونشربها فتتركنا ملوكًا وأسْدًا ما ينهنهنا اللقاءُ

فالخمر وسيلة للهروب من تبعات أفعالهم الشائنة ، وهى تقدم لهم عالمًا زائفًا من الأوهام يتصورون أنفسهم فيه قد وصلوا أعلى الدرجات ، وحققوا كل الرغبات ، فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم أحط مما كانوا .

وينتقل الشاعر انتقالة مفاجئة للحديث عن الحرب ، وكأنها إفاقة مفاجئة حاسمة من عالم الجهالة والغواية إلى عالم الرشد والصلاح .

لكن الذى يلفت نظرنا هو أن الشاعر بدأ نموذجه بتلك العبارة التى يدعو فيها على نفسه والتى يقول فيها :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداءُ

وهى انتقالة تشبه الإفاقة من حلم كئيب يحاول فيه صاحبه أن يبعد عن مخيلته صوراً لم يعد يحبها ، ولا يريد لها أن تعود إلى ذاكرته ، صورًا عفت لجاهلية شعثاء تيمت أصحابها وأذلتهم وأضلتهم وأخلفتهم الموعد الكاذب ، فأفاقوا منها بعد سكرة فقدوا فيها الرشد ، وتصوروا فيها أنفسهم الملوك والفرسان المحاربين الأشداء ، فإذا بالوهم أكذب مايكون ، حتى جاءهم البشير النذير بالمحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك .

---

(١) الديوان ، ص ١٧٩ ، والنقاد : نوع من الغنم صغير الأرجل ، الجون : شديد السواد .

ثم قال الشاعر :

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ   تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا   وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ   يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا   تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ   عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ

الخيل عدة الفارس ، والخيل لاتثير النقع أو الغبار بغير فارسها ، فقوله : عدمنا خيلنا : خبر يتضمن معنى الإنشاء ، فهو يدعو على الخيل إن لم تثر غبار المعركة ، والدعاء على الخيل هو دعاء ضمنى على الفرسان الذين يركبونها ، فكأنه يقول : عدمنا أنفسنا وخيلنا إن لم تقتحم المعركة . والتى سيكون موقعها كداء ، وهى الثنية العليا بمكة .

ثم ينتقل إلى الحديث عن الخيل التى تبارى الأعنة فى اللين وسرعة الانقياد ، على أكتافها الأسل الظماء ، أى الرماح العطاش إلى الحرب والدماء .

فالفرس هى محور القتال إلى درجة أنه لم يتحدث عن الفارس الذى يكر فرسه كرّاً ، ويقتحم بها الحرب اقتحامًا .

فعنترة الفارس لاينسى نفسه ودوره فى المعركة ، حيث يقول[1] :

مازلت أرميهم بثغرة نحرة   ولبانه حتى تسربل بالدم

لكنه يعود فى حديثه عن الحرب إلى الخيل فيقول[2] :

والخيل تقتحم الخبار عوابساً   مابين شيظمة وأجرد شيظم

ولاشك أن عنترة كان فى حاجة إلى الحديث عن نفسه فى مواجهة إنكار قومه له ، أما حسان فعلى الرغم من اتباعيته الشعرية فإنه قد صار إلى لحمة متينة هى لحمة الإسلام والمسلمين ، فلم يعد بحاجة إلى أن يدل بنفسه ، ويتحدث عن ذاته ، بل إن ضمير الجمع قد صار ملمحًا رئيسًا من ملامح الرسالة الشعرية عنده .

« تظل جيادنا متمطرات » أى مسرعات مقتحمات ، « تلطمهن بالخمر النساء » كناية عن فرارالرجال أو قتلهم أو عجزهم حتى لم يبق للنساء غير الخمر يرودن بها الخيل عن أنفسهن .

وقوله : « فامـاً تعرضوا عناً اعتمرنا » تمثل الجملة الشعـرية محور الخطاب الشعرى ، وتمام جملة الشرط فى شطر واحد من علامات الفحولة الشعرية .

لكن أداء العمرة ليـس هو الهدف النهائى من دخـول مكة ، فـالفتح هو غـاية المسلمين ولهذا كانـت الجملة المعطوفـة على جواب الشرط هى الجواب الحقيقى : وكـان الفتح وانكشف الغطـاء .

والمدقق لقـول الشاعـر : وانكشف الغطـاء ، لايستطيع أن يحدد الـدلالة التى تضمنتهـا الجملة ، فأى غطاء انكشف ؟ ، أهو مايريـده المسلمون حقيقة من دخول مكة ، بحيث إنه إذا تحققت غايتهم وتحقق الفتح تكون أهدافهم قد ظهرت .

أم أن الفتح هو بمثـابة الفيصل بين النوايا المضمـرة والعمل الظاهر ، فإذا ماتم ظهـر به الحق ، وانتصر على الباطل ، وانكشف زيف الكفر والكفار .

وإلا فاصبروا لجلاد يوم   يعز الله فيه من يشـاءُ

وإلاّ : أى وإن لم تعرضوا عناّ فاصبروا للحـرب ، وتكون الحرب جلادًا ومجالدة حين تشتد ويستبسل فيها المقاتلون .

وإضـافـة الجلاد لليـوم إضافـة مجازيـة ، واليـوم يشير إلى أن الحرب لن تطـول ، ووصف الشاعر لليوم بأنـه : يعز الله فيه من يشاء فيه إيماء بأن الحرب ستكون حـاسمة والغلبة فيها لمن يشـاء الله أن ينصره ، وقد بشر الله بـالفتح فى قـوله تعـالى :﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾[الفتح آية ٢٧] .

والشاعر على علم بوعد الله لرسولـه بالفتح ورغم ذلك لم يقل إن الله قد وعدنا بالنصر بل سلم الأمـر لله ، شأن المسلم اتباعـًا للأدب القـرآنى الذى تعلمـه المسلمون من قـوله تعـالى : ﴿ وَلاتَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الكهف آية ٢٣] .

وبعد هذه الأبيات يقول الشاعر :

وَجِبْرِيلٌ أَمِينُ اللهِ فِينَا ، وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ : قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْداً يَقُولُ الحَقَّ إِنْ نَفَعَ البَلاءُ
شَهِدْتُ بِهِ ، فَقُومُوا صَدِّقُوهُ ! فَقُلْتُمْ : لا نَقُومُ وَلا نَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ : قَدْ يَسَّرْتُ جُنْداً ، هُمُ الأَنْصَارُ ، عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ

جبريل ﷺ هو روح القدس ، وهو الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلب الرسول الأمين من الله سبحانه وتعالى ، ويشير البيت الأول إلى تأييد الله للمسلمين وأمره لجبريل أن يرد عن المسلمين كيد الكافرين كما يشير إلى أن جبريل روح القدس لانظير له ولا ندَّ له من هؤلاء الكفار .

والأبيات تتضمن معانى من القرآن الكريم ، فالقول هنا ليس نصاً بل مستوحى من بعض المعانى القرآنية فهو يتضمن أن الله أرسل محمدًا يدعو للحق ، وأن الرسول بشر فهو عبد الله ، مؤيد من الله وملائكته وأن الله يشهد أن محمدًا رسول الله ، وأمرنا أن نصدق بما جاء به من عند الله .

ويكشف قول الشاعر :

شهدت به فقوموا صدّقوه فقلتم لانقوم ولانشاءُ

إلى عناد الكفار وصلفهم وحمقهم ، لأن القول هنا ليس ردًا على الرسول ، بل على الله تعالى عما يقولون ويصفون علوًا كبيرًا .

وقال الله قد يَسَّرْتُ جندًا ، هم الأنصار عرضتها اللقاءُ يكشف قوله : يسرت عن فضل الله على نبيه حين أمره بالهجرة ويسر له من غير أهله من ينصره ، والتيسير هنا ليس مجرد أنصار يؤيدون بالقول ، بل هم جند يدافعون ويدفعون ، وقوله : هم الأنصار يتضمن تعظيمًا لشأن الأنصار ، وقصرًا للنصرة عليهم .

ويقول بعد ذلك :

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبابٌ ، أَوْ قِتالٌ ، أَوْ هِجاءُ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوافِي مَنْ هَجَانَا ، وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

أَلا أَبْلِغْ أَبَـــا سُفْيَـــانَ عَنّي ، فَــأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِــبٌ هَــــــوَاءُ
بِأَنّ سُيُــــوفَنَــا تَـــرَكَتْكَ عَبْـــداً ، وَعَبْـــدُ الـــدّارِ سَـــادَتُهَا الإِمَـــاءُ
هَجَـــوْتَ مُحَمّـــداً ، فَأَجَبْتُ عَنْـــهِ ، وَعِنْـــــــدَ اللهِ في ذاكِ الجَزَاءُ

يكشف البيت عن موقف الأنصار من قريش المناهضة للرسول ولدعوته ، حيث يواجهون منهم بالسباب أو الهجاء أو القتال . فيردون بالقوافى ، أى : القصائد على من هجاهم ، وقوله «نحكم بالقوافى من هجانا» يتضمن معنى التوقيف والحصر فكأن القوافى بمثابة الحكمة التى تلجم الخيل والإبل وغيرها .

وقوله : «وتضرب حين تختلط الدماء» الضرب حين تشتد الحرب دليل على القوة والثبات والصمود .

أما قوله : « ألا أبلغ أبا سفيان عنى » يمثل الفعل «أبلغ» و «بلغ» نمطًا لمطلع الرسالة الشعرية عند الجاهليين وشعراء صدر الإسلام فقد كان الشاعر لسان قومه ، والمدافع عنهم والذائد عن أحسابهم وأعراضهم وأفعالهم ، والشعر هو الوسيلة المثلى لإبلاغ الرسالة الإنسانية أيًا كان موضوعها ، والرسالة الشعرية لها ما للرسالة من خواص موضوعية وفنية ، ولها ما للشعر من خصائص .

والمرسل هنا هو الشاعر ، والمخاطب ، أو المرسل إليه هو أبو سفيان زعيم قريش فى مواجهة النبى ﷺ والمسلمين .

وفى الشطر الثانى من البيت يقول حسان مخاطبًا أبا سفيان : أبلغ عنى الرسالة ، فأنت فارغ وجبان ، لكن علاقة الشطر الثانى بالأول علاقة تعليلية ، والتعليل هنا يتوجه إلى التبليغ والمبلغ ، وكأنما المجوف النخب الهواء هو أنسب أداة لتبليغ الرسالة عبر المكان الممتد ، فهو بمثابة الأنبوب الطويل الذى يقوى الصوت .

والمعنى القريب لايتناقض مع هذا المعنى الذى قد يبدو عنه بعضهم بعيدًا .

وقوله :

بأن سيوفنا تركتك عبدًا وعبد الدار سادتها الإماءُ

المطلوب هنا أن يبلغ أبو سفيان ، والمبلغ هو أبو سفيان نفسه ، وهذا النمط من التبليغ - والذى يكون المبلغ والمبلغ واحد - ليس شائعًا ، بل الشائع أن يقوم المطلوب منه أن يبلغ

الرسالة تبليغها إلى غيره ، نحو قول زهير :

ألا أبلغا الأحلاف عنى رسالة ذبيان هل أقسمتم كل مُقَسَّمِ

والرسالة التى يراد من أبى سفيان أن يبلغها عن نفسة رسالة غريبة أيضًا ، فكيف يبلغ عربى عن نفسه بأن سيوف قوم قد تركته عبدًا ، لم نعهد هذا عند أحد ، ولم نعهد ذلك حتى عند أصحاب المنصفات ، والرسالة تتضمن قدرًا كبيرًا من التهكم .

وقوله : « بأن سيوفنا قد تركتك عبدًا » يدل على أنه حين أفلت من سيوفهم أفلت مقهورًا ذليلاً ، فمن نجا من القتل لم ينج إلا وقد أيقن بهوانه وذله . وهذا قبل إسلامهم ، فمن أسلم منهم دخل فى رضوان الله .

وقوله : « وعبد الدار سادتها الإماء » ويمثل ذلك مبالغة فى العبودية ، فالمعروف أن من يستعبد يصبح عبدًا لسيد لاعبدًا لعبد . بل عبدًا لأمة .

وقوله :

هجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله فى ذلك الجزاءُ

البحث هنا ليس عن معنى الشطر الأول ، فالمعنى واضح ، يقول : إنك يا أبا سفيان هجوت محمدًا ، وقد أجبت عنه بهجائى لك .

وعلاقة الجملتين هنا علاقة تشبه الشرط والجواب ، فكأننا به يقول : إن كنت هجوت محمدًا فقد أجبت عنه ، ويتجه البحث بنا إلى علاقة الجملتين بما قبلهما من هجاء حسان لأبى سفيان حيث يبدو أن حسانًا شعر بأن هجاءه لأبى سفيان كان شديدًا ، فقال : هجوت محمدًا فأجبت عنه ، وكأننا به يبرر ويعلل هجاءه لأبى سفيان ، من جهة ويبرر شدة هذا الهجاء من ناحية أخرى .

ويرى البلاغيون أن مثل هذه الجمل التى تجىء متضمنة تبيينًا وتعليلاً لقول سابق هى جواب لسؤال مقدر ، فكأن سائلاً سأل أو كأن المخاطب سأل : لماذا تهجو مثل هذا الهجاء وأنا سيد سادات ، مكة ؟ فكان هذا جوابًا عن ذلك السؤال .

والعلاقة بين الشطر الأول من البيت والشطر الثانى قريبة من ذلك فقوله : وعند الله فى ذاك الجزاء ، هو بمثابة رد ضمنى على نفس السؤال ، أو عن سؤال تقديره : ولماذا تجيب عن محمد ؟ فكان قوله : وعند الله فى ذلك الجزاء ردًا عليه .

ويروى أن رسول الله ﷺ حين سمع ذلك من حسان قال : جزاؤك على الله الجنة بإحسان.

والبيت يؤكد الوظيفة الإعلامية للشاعر بالنسبة للقبيلة التى ينتمى إليها ، ووظيفة الشعر أيضًا ، فقد كان الشعر صحيفة العرب السائرة ، وكان الشاعر عين قومه ولسانهم ، يرى لهم ، ويدافع عنهم بالكلمة الشاعرة ، ويدحض آراء خصومهم ، ويثبت لهم مكانًا فى هذا الوجود .

وقوله :

أتهجوه ، ولست له بكفءٍ   فشركما لخيركما الفداءُ

تحدث البرقوقى عن الشطر الأول فقال : الاستفهام فى قوله : أتهجوه استفهام إنكارى ، يقول : ما كان ينبغى أن تهجوه ولست من أكفائه ونظرائه ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك بأن الإنكار هنا ليس مطلقًا بل مقيدًا بجملة الحال ، ومعنى هذا أن الهجاء قد يكون مقبولاً لو كان أبو سفيان كفئًا لرسول الله ﷺ ، أما وهو ليس بكفءٍ له فهو منكر وغير مقبول .

وقوله : «فشركما لخيركما الفداء» فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ آية ٢٤] يقول الزمخشرى : « وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مشاق قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك ..» ثم استشهد بالبيت ، والشطر لايدل على ذلك الذى ذهب إليه الزمخشرى ، فهو امتداد لهجاء حسان لأبى سفيان ، فالسياق يتضمن أن أبا سفيان فداء لرسول الله .

قال السهيلى : « وفى ظاهر هذا اللفظ شناعة ؛ لأن المعروف أن لايقال : هو شرهما - إلا وفى كليهما شر ، وكذلك شرٌ منك ، ولكن سيبويه قال : تقول مررت برجل شَرٌّ منك ، إذا نقص عن أن يكون مثله ، وهذا يدفع الشناعة عن الكلام الأول ، ونحو منه قوله عليه السلام : « شرُّ صفوف الرجال آخرها » يريد نقصان حظهم عن حظ الصف الأول ، كما قال سيبويه ، ولايجوز أن يريد التفصيل فى الشر ، والله أعلم » [خزانة الأدب ٩/ ٢٣٧] .

وقد نكون بهذا قد دللنا على أن البيت ليس مما يمكن أن يضاف إلى المصنفات ، ففى القول بهذا خطأ كبير .

يقول حسان :

هجوت مباركًا برا حنيفًا   أمين الله شيمته الوفاءُ

يبدو الخبر هنا متضمنًا للإنكار أو امتدادًا للإنكار السابق ، فكأن الشاعر يقول ضمنًا : أتدرى من هجوت ؟ هجوت مباركًا من الله كثير البر ميالاً للحق ، إنه أمين الله الذى استودعه الخالق رسالته ، شميته الوفاء .. فى هذا البيت يجمع حسان أهم المحاور الأساسية لشخصية النبى ﷺ وصفة مبارك وبَرّ من صفات الأنبياء ، قال الله تعالى عن عيسى ﷺ : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم الآية ٣٠-٣٢] .

وصفة أمين من صفات الأنبياء كذلك ، قال تعالى :﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) ﴾ [الشعراء آية ١٠٦ ، ١٠٧] .

وصفة حنيف من صفات الأنبياء أيضًا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾[الآية ١٦١ فى الأنعام]

والوفاء من صفات الأنبياء والصالحين ، قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم آية ٣٧].

وهكذا نرى أن القرآن كان مصدرًا لمعانى التى استمد منها حسان معجمه الشعرى ، لكن الشاعر يرى أنه قد أعطى هجاء أبى سفيان ماقد يجعل الأعداء يظنون أنهم قد حققوا شيئًا بهجائهم للرسول ﷺ فيستدرك قائلاً :

هجوت مباركًا برًا رحيمًا   أمين الله شيمته الوفاءُ

ويسمى البلاغيون هذا الفن من الكلام إستيفاء الأقسام أو التقصى ، أو الاستقصاء ، وهو أن يتناول الشاعر معنى فيستوفيه إلى أن لايترك فيه شيئًا ، فقد هجا أبو سفيان محمد ﷺ وأجاب الشاعر عنه ، فهجاء النبى أمر مرفوض من الشاعر ، وكان لهذا الرفض أسبابه التى تتصل بصفات النبى ﷺ وهو عندما قال : هجوت مباركًا كان إنكاره مقيدًا بصفة واحدة ، وهى وحدها مانعة من الهجاء ، لكن الشاعر استطرد مستقصيًا أهم الصفات التى يتصف بها الرسول الكريم وكلها صفات تمنع أى شاعر من هجاء صاحبها .

ويتابع حسان رضي الله عنه فيقول :

فمن يهجو رسول الله منكم   ويمدحه وينصره سواءُ

يخاطبهم حسّان فيقول : لقد ارتكبتم كبيرة بهجائكم رسول الله ، لكن لاتظنوا أنكم قد نلتم منه نيلاً ، فالبحر لايضره أن يرميه صغير أو كبير بحجر ، ومن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء ، وهذا القول يتضمن أمرين : الأول : أنه لاقيمة لهجائكم ولامدحكم ولانصركم فكل منكم كزعيمكم «مجوف نخب هواء» .

الثانى : أن الرسول عظيم مبارك برٌّ أمين الله مؤيد بروح القدس لايضيره هجاؤكم كما لم تضره حربكم ، ولايفيده مدحكم ونصركم .

فإن أبى ووالده وعرضى　　　لعرض محمد منكم وقاءُ

يتصل هذا البيت بالبيت الذى يقول فيه :

هجوت مباركًا برًّا حنيفًا　　　أمين الله شيمته الوفاءُ

فمن يتصف بهذه الصفات يجب أن يذود عنه أصحابه ، وأولى الناس بالذود عنه شاعره حسان بن ثابت ، والشاعر يستوفى أقسام من يمكن أن يعضدوه من أهله وهم : أبوه وجده وعرضه الذى تتنظم كل فرد من أهله - هؤلاء جميعًا لعرض محمد من كفار قريش -آنذاك- وقاء .

ونقول - آنذاك - ؛ لأن كثيرًا ممن قاتلوا النبى ﷺ وهجوه فقد أسلموا وحسن إسلامهم ، وأسهموا فى الذود عن الإسلام وفى نشره .

فإمّا تثقفنّ بنو لُؤيّ　　　جذيمة إنّ قتلَهمُ شفاءُ
أولئكَ معشرٌ نصروا علينا　　　ففى أظفارنا منهم دِمَاءُ
وحلف الحارث بنى أبى ضرار　　　وحلف قريظة مِنّا بَرَاءُ

تمثل الأبيات عرضًا إعلاميًا شعريًا لقضية تتصل بالقتال بين المسلمين ومن والاهم ، وبين هؤلاء الأحلاف الذين تحالفوا لحرب المسلمين .

فإمّا = فإن ما ، تثقفن : أى أدركت بنو لؤى قبيلة جذيمة وظفرت بها ، وقوله : إن قتلهم شفاء جواب للشرط ، وقتل العدو شفاء لصدر عدوه . وقد حذف الفاء من جواب الشرط ضرورة .

والبيت الثانى تعليل لقوله : إن قتلهم شفاء .

وأولئك : إسم إشارة للبعيد ، وهى فى مقام المدح تفيد التعظيم ، وفى مقام الهجاء تفيد الاستبعاد ، كأنك ترباً بالمقام أو المكان الذى أنت فيه أن يكونوا هم فيه ، وهو ما يتضمنه هذا السياق .

وقوله : ففى أظفارنا منهم دماء ، دلالة على أن بينهما قتال ، وليس للمسلمين عندهم ثأر، أمّا لو قال : ففى أظفارهم منا دماء - لكان للمسلمين عندهم ثأر .

وقوله : وحلف الحارث منا براء . الأشهر أن يقول: إننا براء منهم ، فالمتكلم يبرأ من يغره ، لكن ذلك لايمنع أن يقول المرء : إنك برىء منى، وأنا برىء منكم. يقول تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس آية ٤١] .

وفى آخر بيت فى القصيدة يقول حسان :

لسانى صارم لاعيب فيه   وبحرى لاتكدِّرهُ الدّلاءُ

يطلق اللسان على اللغة ، يقال : لسانه فصيحة أو فصيح ، أى لغته فصيحة ، أو نطقه فصيح ، صارم : قاطع ، وهى من صفات السيف ، وقوله :لاعيب فيه : نفى للعيب عن لسانه ، أى عن شعره .

وبحرى لاتكدره الدلاء : أى أن شعرى بحر صاف واسع عميق لاتكدره دلاء من يمتحون منه الماء . وهذا كناية ضمنية عن قوته الشعرية ، وتمكنه وفحولته ، بحيث لايستطيع شاعر أن يتفوق عليه .

وهذه رسالة لأعداء الإسلام ، وللشعراء الذين يتطاولون على رسول الله ﷺ يهددهم فيها بأن ردّه سيكون مؤلمًا ومؤثرًا ، فى الوقت الذى لن ينال منه شعر شاعر منهم ، فالبحر لاتكدره الدلاء .

جران العود يهجو زوجتيه

● **يقول جران العود النميرى(*) :**

أَلاَ لا يَغُــرّنّ امــرءاً نــوفليــةٌ … على الــرأس بَعْــدي أو تــرائبُ وُضَّحُ
ولا فَــاحِمٌ يُسْقى الــدِّهَــان كـأنَّــهُ … أَسَــاوِرُ يَــزْهَــاهــا لعينيك أبطحُ
وأذنــابُ خيـلٍ عُلِّقَتْ في عقيصــةٍ … تــرى قُــرْطَهَــا مـن تحتهـا يَتَطَــوَّحُ
فـإِنَّ الفَتَى المغـــرورَ يُعْطِي تــلادَهُ … وَيُعْطى الثَّنــا مِنْ مــالــه ثـم يُفْضَحُ
ويغـدو بمشْحَــاجٍ كـأنَّ عِظَــامَهــا … محاجِنُ أعــراهــا اللِّحــاءُ المشَبَّحُ
إذا ابْتُــزَّ عنهــا الــدرعُ قيل مُطَــرَّد … أَحَصّ الـــذنــابى والــذراعين أرشَحُ
فتلك التى حَكَّمْتُ في المالِ أَهْلهــا … ومــا كـلُّ مُبْتَــاعٍ من النَّــاس يَــرْبَحُ
تكــونُ بِلَــوْذِ القِــرْنِ ثُمَّ شِمالهــا … أَحَــثُّ كثيراً مــن يميني وأسرحُ
جَـرتْ يـوم رحنـا بـالـركـاب نَـزُفُّهـا … عُقَــابٌ وشحَّــاجٌ من الطير مَتْيَحُ
فأمّــا العُقــابُ فهي منهــا عَقُــوبَــةٌ … وأمّــا الغـرابُ فــالغــريبُ المطــوّحُ
عقَــابٌ عَقَبْنَــاةٌ تــرى من حــذارهــا … ثعــالـبَ أهــوى أوْ أشــاقــرَ تضبَحُ
قــد كــان لي ضَرَّتَــيْنِ عَــدِمْتني … وعمّا ألاقـي منهما مُتَــزَحْــزَحُ
هى الغــولُ والسِّعْــلاةُ حلقي منهما … مُخَدَّشُ مــا بين التراقــي مُجَرَّحُ
لقــد عالجتنــي بــالنِّصــاءِ وبيتُهــا … جَــديــدٌ ومن أثــوابها المسكُ ينفحُ
إذا مــا انتضينــا فــانتـزعتُ خِمارَهــا … بَــدَا كــاهلٌ منهــا ورأسٌ صَمَحْمَحُ
تَــداوِرُني في البيتِ حَتى تكُبَّني … وعيني مـن نحــو الهراوةِ تلمحُ
وقــد عَلَّمتني الــوقْــذَ ثـم تُجَرُّني … إلى الماءِ مَغْشِيّــا عَلَيَّ أَرَنَّــحُ
ولَمْ أر كــالموقــوذ تُــرْجَى حَيــاتُــه … إذا لم يــرَغْــه الماءُ ســاعــةَ ينضحُ
أقــولُ لنفسي أين كنت وقــد أرى … رجــالاً قيــامــاً والنسـاءُ تُسَبِّحُ
أبــا الغــوْرِ أمْ بــالجلسِ أمْ حيثُ تلتقي … أمــاعــز مـن وادي بُــرَيْـطٍ وأبطحُ
خُــذا نِصْفَ مــالي واتــركــا لي نصفــه … وَبِيْنَــا بِــذَمٍّ فــالتعــزُّبُ أرْوَحُ

(*) انظر القصيدة فى ديوانه ، ص ٧٣ .

فيا ربَّ قد صانعتُ عاماً مجرّماً　　وخادعتُ حتى كادتِ العينُ تمصحُ

وراشيتُ حتى لو تكلّف رِشْوتي　　خليجٌ من المرّان قد كاد ينزحُ

أقولُ لأصحابي أسِرُّ إليهمُ　　لي الويلُ إنْ لم تجمحا كيف أجمحُ

أ أتركُ صبياني وأهلي وأبتغي　　معاشاً سواهم أمْ أقِرُّ فأذبحُ

ألاقي الخنا والبرح من أمّ حازمٍ　　وما كنت ألقى من رزينةَ أبرحُ

تَصَبّر عينيها وتعصبُ رأسها　　وتغدو غُدُوَّ الذئب والبومُ يَضْبَحُ

ترى رأسها في كل مَبْدى ومَحْضرٍ　　شعاليلَ لم يُمْشَطْ ولا هو يُسْرَحُ

وإنْ سَرَّحته كان مثل عقارب　　تَشُول بأذنابٍ قصارٍ وترمحُ

تخطّى إلىّ الحاجرين مَذَلّةَ　　يكادُ الحصى من وطئها يترضّحُ

كنانٌ عفرناةٌ إذا لحقتْ به　　هوى حيث تُهْويه العصا يتطوّحُ

لها مثل أظفار العُقَابِ وَمنْسِمٌ　　أزَجُّ كظنبوبُ النعامة أرْوحُ

إذا انفلتتْ من حاجرٍ لحقتْ به　　وجبهتها مِنْ شِدَّةِ الغيظ ترشحُ

وقالتْ تَبَصَّرْ أصْلَ أُذْنِبهِ　　لقدْ كنت أعفو عن جرانٍ وأصفحُ

فَخَرَّ وَقيذاً مُسْلَحِبّاً كأنّه　　على الكِسْر ضَبْعانٌ تَقَعَّر أملحُ

وَلمّا التقينا غدوةً طال بيننا　　سبابٌ وقَذْفٌ بالحجارة مِطْرحُ

أُجلّي إليها من بَعيدٍ وأتقي　　حجارتها حقّاً ولا أتمزحُ

تَشُجُّ ظنابيبي إذا ما اتّقيْتُها　　بِهِنَّ وأُخرى في الذوابة تَنْفَحُ

أتانا ابن رَوْقٍ يبتغي اللهو عندنا　　فكاد ابنُ رَوْقٍ بين ثوبيه يَسْلحُ

وأنقذني منها ابنُ رَوْقٍ وصوتها　　كصوتِ علاة القين صَلْبٌ صُمَيْدَحُ

وَولّى به رادُ اليدين عِظَامُهُ　　على دقِّ منها موائرُ جُنَّحُ

وَلَسْنَ بأسواءٍ فمنهنَّ رَوْضَةٌ　　تهيجُ الرياض غيرها لا تَصوّحُ

جُمادِيّةٌ أحمى حدائقها الندى　　وَمُزْنٌ تَدَلّيه الجنائب دُلَّحُ

ومنهنَّ غُلٌّ مُقْمِلٌ لا يفكّهُ　　من القوم إلاّ الشَّحْشَحان الصَّرَنْقَحُ

عمدتُ لعود فالتحيتُ جرانه　　وللكيْسُ أمضى في الأمورِ وأنجحُ

وَصَلْتُ به مِنْ خَشْيَةِ أن تذكّلا　　يميني سريعاً كرها حين تمرحُ

خذا حذراً يا ضرتيّ فإنّني　　رأيتُ جران العَوْدِ قد كاد يَصْلُحُ

● لمحة عن حياة الشاعر :

اشتهر شاعرنا بلقبه «جِران العَوْد» بحيث إن معظم من ترجموا له لم يشيروا إلى إسمه الحقيقى ، وإنما اكتفوا بذكر شهرته ، وممن نصّ عليه صاحب تاج العروس ، إذ قال : « وجران العون شاعر نمرى من بنى نمير واسمه عامر بن الحارث »[(1)] ، وإنما سمى جران العود لقوله لامرأتيه :

خــذا حــذرًا ياضــرتى فإنَّنى　　　رأيتُ جِــرَان العَوْدَ قد كادَ يصلح

يريد سوطًا قده من صدر جمل مُسِنّ خوفهما به[(2)]، وزاد البغدادى فى خزانته نقلاً عن ياقوت الحموى فى حاشية مختصر جمهرة ابن الكلبى قوله :

عمدت لعود فالتحيت جرانه ... إلخ .

فسمى جران العود وذهب اسمه فلايعرف[(3)].

وقد أشار الشاعر إلى لقبه «جران العون» أكثر من مرة فمن ذلك قوله :

خــذا حــذرًا ياضرتيّ فإنَّنى　　　رأيت جِرانَ العوْدِ قد كادَ يصلُحُ[(4)]

وقوله :

بَدَا لجرانِ العَـوْدِ والبحرُ دونَهُ　　　وذو حَدَبٍ من سَرْوِ حِمْيَر مشرفُ[(5)]

وهذا يدل على إعجابه بهذا اللقب أو رضاه به على الأقل .

وقد اختلف كذلك فى تحديد عصره ، فذكر صاحب الخزانة أنه جاهلى[(6)]، أما بروكلمان فى تاريخه فقد قال : «يقرر الأدباء العرب أنه من الجاهليين»[(7)]، لكنه يبدى عجبه من « أن

---

(١) محمد مرتضى الزبيدى : تاج العروس من جواهر القاموس ، (الطبعة الأولى القاهرة - المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ)ج٩ ، ص١٦١ .

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الشعر والشعراء - تحقيق الدكتور محمد مفيد قميحة (ط٢ ،بيروت - دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ) ص٤٨٠ .

(٣)عبدالقادر البغدادى : خزانة الأدب (ط١ ، تحقيق عبدالسلام هارون ١٤٠٣هـ) ج١٠ ص١٨ .

(٤) جران العود النميرى : الديوان ، تحقيق نورى حمودى القيسى (وزارة الثقافة والإعلام ودار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٢م) ص٤٥.

(٥) المصدر السابق ص٥٣ .

(٦) خزانة الأدب : ١٠/١٨ .

(٧) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة محمود فهمى حجازى ، القسم الأول (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ١٩٩٣م) ص١٧٤.

يتحدث شاعر جاهلي بدوى مثل جران العود عن حمامة نوح »[1]، وممن وافقه على ذلك الدكتور سامى مكى العانى فى معجمه فقال عنه: «شاعر جاهلى اسمه عامر بن الحارث ابن كلفة »[2]، أما صاحب التاج فذكر نقلاً عن الحافظ السيوطى فى المزهر أنه شاعر إسلامى [3]، ونحا نحوه الزركلى فى أعلامه فقال عنه : « شاعر وصاف أدرك الإسلام وسمع القرآن ، واقتبس منه كلمات وردت فى شعره» [4]، ولم يحدد آخرون العصر الذى عاش فيه [5].

ونستطيع القول بأنه شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية وأدرك الإسلام ، ويؤكد هذا ماذكره الزركلى من : « أنه شاعر وصاف أدرك الإسلام وسمع القرآن » كما يدل على ذلك تلك الإشارات التى وردت فى ديوانه عن البيت الحرام والطواف ونفرة الحجيج وغير ذلك مما يؤكد أنه قد أدرك الإسلام وأسلم .

فمن ذلك حديثه عن الطواف حول البيت الحرام ، فهو يقول :

وإنى وَرَبِّ رجالٍ شُعْبُهم شُعَبٌ　　　شتى يطوفون حول البيت والحجر

جاءتْ بهم قُلُصٌ فُتْلٌ مرافقها　　　قُبُّ البطون من الإدلاج والبُكَرِ [6]

وفى موضع آخر يشير إلى «ليلة النفر» وهو اليوم الثالث من أيام منى ، وفيه ينفر الناس إلى مكة المكرمة بعد أن يكونوا قد أكملوا مناسك حجهم ، يقول :

قَضَيْنَ حجًا وحاجات على عجل　　　ثم استدرنَ إلينا ليلة النَّفَرِ [7]

ويذكر الشاعر كذلك «السلام» وهو من المصطلحات الإسلامية ، حيث أكد الإسلام على بذل السلام وإفشائه ، يقول :

يهدى السلام لنا من أهل ناعمة　　　إنّ السلام لأهل الود مبذول [8]

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٤ .

(٢) سامى مكى العانى : معجم ألقاب الشعراء (ط١ ، دبى ، مكتبة الفلاح ١٤٠٢هـ) ص ٥٣ .

(٣) تاج العروس ج٩ ص١٦١ .

(٤) الزركلى : الأعلام (ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٠م) ج٣ ، ص٢٥٠ .

(٥) الشعر والشعراء ، ص ٤٨٠ ، وانظر : لسان العرب ١٣ / ٨٧ .

(٦) الديوان : ص ٩١ .

(٧) الديوان : ص ٩٦ .

(٨) الديوان : ص ٩٩ .

كما يشير إلى استعمال «السواك» ويحبذ هذا الإستعمال ، والسواك كما هو معروف مما حث الرسول الكريم على استعماله وهو سمة من سمات المسلمين ، يقول جران العود :

تُجرى السواك على عَذْبٍ مَقَبَّلَه   كأنه منهـلّ بالراح معـلولٌ[1]

ويذكر الشاعر عبارة «بإذن الله» فى شعره ، وهى من العبارات الإسلامية ، يقول :

تفريُجُهـنّ بإذن الله يحـفـزُهُ   حَذْفُ الزماعِ وجَسْراتٌ مراقيلُ[2]

إنّ هذه الإشـارات مجتمعـة تقوى ماذهب إليه بعض الذين ترجموا له من أنه شاعر إسـلامى ولايمنع ذلك من كونه عـاش جزءًا من حيـاته فى العصر الجاهـلى ثم أدرك الإسـلام وأسلم .

هذه القصيـدة من بحر الطـويل ، وقد تنـاول الشاعـر فيها مـوضوعًـا جديـدًا فى الشعر العربى لم نجد قبله ولابعده شاعرًا خصص قصيـدة لمثل هذا الموضوع ، ولا قدّم تشكيلاً شعريًا منفردًا ذلك التفرد الواضح على الرغم ممّا بينه وبين عالم الشعر من علائق .

ولاشك أن جدة الموضوع وجدة التشكيل - قد طرحت علينا المنهج الذى يمكننا أن ننفذ بـه الهدف المنشود من الـدراسة وهـو بيان ظـواهر التجـديد فى هـذه القصيدة ، وسأحـاول أن أكشف من خلال تحليلها ظواهر التجديد فيها وخصائصها الفنية والموضوعية .

من المؤكد أنّ جـران العود النميرى الشاعـر الوحيـد من الشعراء الجاهليين والمخضرمين الذى قدم قصيدة طويلة بلغت سبعة وأربعين بيتًا ذات موضوع واحد فى هجاء المرأة ، وهى من بحر الطويل ، فالقصيدة فضلاً عن جدة الموضـوع - تتناول موضوعًا واحدًا يتصل بفجيعته فى زواجه من امرأتين شريرتين أذاقتاه كل ألوان العذاب ، فضلاً عما وصفهما به من قبح فى الشكل والسلوك ، هـذا إلى جانب أسلوب القصـة الشعرية الذى تميـزت به القصيدة تميـزًا لم نعهده فى غيرها من القصائد من حيث التشكيل الفنى والمحتوى الشعرى .

يقول جران العود :

ألا لايَغُرّنّ امـرءًا نَوْفَلِيّةٌ   على الرأس بَعْدى أو ترائبُ وُضّحُ

---

(١) الديوان : ص ١٠٢ .

(٢) الديوان : ص ١٠٢ .

ولا فـاحـمٌ يُسـْقَى الدّهـانَ كَأنّهُ　　أسـاورُ يَزْهـاهـا لعينيك أبطـحُ

وأذنابُ خيـل عُلِّقتْ فى عقيصة　　ترى قُرطَهَا مِنْ تحتهـا يَتَطَوَّحُ[1]

فإننا لم نعهد فى الشعر العربى مطلعًا يشبه ذلك المطلع ، ولاصورة لقبح امرأة تشبه تلك الصورة : والشاعر يقدم تجربته فى صورة تحذيـر : ألا لايغرن امرءًا نْوفلية وهو ضرب من المشط تضعه المرأة على رأسها.. ولا عظام صدر ، ولاشعر أسود يسقى الدهان كأنه حيّات يرفعها واد، ولاشعر كأذناب خيل علقت فى عقيصة ترى قـرطها من تحتهـا لطول عنقها ، لقـد استحالت مصاحبات الجمال إلى مصاحبات للقبح ، فأدوات الزينة وسيلة لخداع الرجال عند هذه المرأة ، والترائب الوضح .. ليست قـرينة الجمال ، والشعر الفـاحم الطويل الذى يسقى الـدهان ليس جميلاً بل هـو كأذناب الخيل ، وطول العنق والقـرط الذى يتطوح ليس دليلاً على جمال ومـلاحة بل على قبح .. والتشبيهـات المستحدثـة التى لم نسمع عنهـا ، هـو أن عناصر الجمال المفتعلـة وسيلة للخداع لاعلامات على الجمال ، وأن الشعر الفـاحم يشبه الحيّات ، وهو تصوير يكشف عن الإحساس بالـرعب والفزع من تلك المرأة .. وهى صورة لم نعهد لها مثيـلاً فى الشعر العربى فى صدر الإسلام أو قبل الإسـلام أو بعده ، وهى تكشف عن تصور شديد الخصـوصية للمرأة، وعن موقف شـديد العـداوة لها ، فما عهدنا واحـدًا ممن تزوجـوا بمن لايحبون قـدم لنا مثل تلك الصورة البشعة عن المرأة .

ويمثل المطلع مقدمة حكمية للقصة الشعرية التى يعرضها الشاعر لمأساته مع زوجتيه .. ولاشك أن الخدعة التى وقع فيها الشـاعر بوصفه بطلاً للقصة خـدعة قصصية ، أى لها جذور درامية حيث تتكـرر فى كل العصور انخـداع الرجل بالمرأة مـن حيث الشكل والأخلاق ، فتراه يفجع بامرأة تمثل نمـوذجًا غير النموذج الذى تـوقعه قبل الزواج ، ويمضى الشاعـر فى حديثه عن زوجتيه فيقول :

فإنّ الفَتَى المغْـرورَ يُعطى تـلادَه　　ويعطى الثنـا من مـاله ثم يُفْضَحُ

ويغـدو بمشـْحَاجٍ كأنَّ عِظـامَها　　محـاجنُ أعـراهـا اللِّحـاءُ المُشَبِّحُ

إذا ابتُز عنهـا الدرعُ قيـل مُطرَّد　　أَحَصُّ الذُّنابى والذراعـين أرشـحُ

(١) ديوان جران العود : ص ٧٣ .

جاء البيت الرابع نوعًا من التفسير لما سبق ، وجاءت الجملة مؤكدة بأن وصف الفتى الذى هو الشاعر بالمغرور بمعنى المغرور به ، فهو يعطى المال الذى ورثه والمال الذى استحدثه ، وليت هذا العطاء له عاقبته الحسنة فيجد خيرًا أنه يعطى ذلك كله ويفضح ، ويغدو بامرأة تمثل نموذجًا للقبح فهى مشحاج سريعة المشى كأن عظامها - لا عوجاجها وهزالها - محاجن نزع عنها اللحاء إذا نزع عنها القميص بدت مثل ذكر النعام النافر الذى نزع عنه ريشه .

إن الفتى المغرور هو بطل القصة الشعرية ، وهى صورة تشبه - دراميًا - أبطال كثير من القصص المعاصرة للزوج الذى يقع تحت تسلط الزوجة وفى مهب شرورها .

فتلك التى حكمت فى المال أهلها   وما كل مُبْتَاع من الناس يَرْبَحُ

يدل اسم الإشارة«تلك» على البعيد وهو فى مقام الهجاء يدل على الاستبعاد بمعنى إبعاد المشار إليه عن أن يكون حاضرًا كراهةً تنزيلاً للبعد المعنوى - تقبيحًا وتنفيرًا وكراهة للمتحدث عنها - منزلة البعد الحسى فى اسم الإشارة «تلك» ، ويكشف قوله (حكمت فى المال أهلها) عن المفارقة فما مثل تلك المرأة يحكم أهلها فى مال خاطبها .. ويتضمن ذلك أول بانية من بانيات المأساة التى عاشها الشاعر والفجيعة التى ألمت به .

وتمثل جملة (وما كل مبتاع من الناس يربح) المحور العقلى الذى تدور من حوله القصيدة، فالبيع قد خسر ، وما كل مبتاع من الناس يربح فى بيعه ، وتكشف الجملة عن استسلام أمام تلك الخسارة وحسرة وألمًا :

تكون بلوْذ القِرْنِ ثُمّ شـمالُهـا   أَحَثُّ كثيرًا من يمينى وأسـرحُ

تبدو تلك الزوجة كأنها خصم عنيد متحفز للزوج ، فهى دائمًا بجانبه لاتترك له فرصة لرد عدوانها ، فشمالها أسرع وأسرح من يمينه .

ووضع البيت قد لايكون هو الموضع الذى أراده الشاعر ، لأنه يتصل موضوعيًا بصراعة مع تلك الزوجة ، وكان من الأجدر أن يجيء البيت التاسع وما بعده فى هذا الموضع .

جـرت يوم رحنا بالركاب نَزُّفّهَا   عُقـابٌ وشـحّاج من الطير مَتْيَحُ

فأمّـا العُقـابُ فهى منهـا عُقُوبةٌ   وأمّـا الغُرابُ فالغَريـبُ المطـوّحُ

عُقابٌ عَقَبْنَاةٌ تَرى مـن حذارهـا   ثعـالب أهـوى أو أشاقرَ تَضْبَحُ

لم نعهد فى شعر صـدر الإسلام ولا فى الشعر الجاهلى مثل تلك الصورة للمـرأة .. ففى يوم زفافها جرت عقاب وغراب فى كل وجـه .. وتمثل الأبيات ٩ ، ١٠ ، ١١ ، إعادة عرض للحدث حيث بدأ الـزفاف بنذر الشـؤم المعهودة عند العـربى قبل الإسلام ، وامتدت بعـد الإسلام على الأقل فى التراث الشعرى عند بعض من لم يتعمق الإسلام نفـوسهم ، ولكن نذر الشؤم هنا أكثر وأكبر ممّا عهدناه ، فأما العُقاب منها فعقوبة ، وأما الغراب فإن القريب هو المبعد .. إنها عقاب عقبناه ، سريعة الخطفة تخافها الثعالب وتضج خوفًا وحذرًا .

لقـد كـان لى عن ضرَّتَيْن عَـدِمَتني ... وعمّـا أُلاقى منهمـا مُتَزَحْزَحُ

هى الغـولُ والسِّعـلاةُ حلقي منهما ... مُخَـدشُ ما بين التَّراقـى مُجَـرَّحُ

لقـد عاجلتنى بـالنَّضاءِ وبيتُهـا ... جـديـدٌ ومن أثـوابها المسـكُ ينفحُ

إذا ما انْتَضَينـا فانتـزعتْ خِمَارَهـا ... بَدَا كاهـلٌ منهـا ورأسٌ صَمَحْمحُ

تقترب اللغة لشـدة واقعيتها من لغة الحديث اليومى ، ولكنـه حديث وفر له الشـاعر كل عنـاصر الشعريـة التى تـرتقى به إلى مستوى عالٍ مـن الفنية .. وتبـدو الجملة الاعتراضيـة - عدمننى - وهى دعاء منه على نفسه ، فقد لاقى من زوجتيه ما لاقى .. وهما ضرتان كلتاهما شر، وهما كالغول وأنثاه .. عـالجته واحدة ولمّا يزل بيتها جديـد والمسك يفوح من أثوابها بأن أخذت بناصيته ، فإذا انتضيا وانتزع خمارها بـدا كاهل صلب ورأس صمحمح ، وهى نقطة تمثل صوتيًا للصلابة والبشاعة ، ثم يقول :

تُـدَاورُنـى فى البيت حتـى تكبُّني ... وعينـى من نحـو الهراوةَ تَلْمَحُ

وقـد عَلَّمتْنى الـوَقْـذَ ثم تجرُّني ... إلى الماء مَغْشيًّـا عَلَيّ أُرَنَّـحُ

وَلَمْ أرَ كـالموقـوذِ تُـرجَى حَيـاتُـه ... إذا لم يَـرُعـه الماءُ سـاعـة ينضحُ

أقـولُ لنفسى أيـن كنت وقـد أري ... رجـالاً قيـامـاً والنسـاءُ تُسَبِّحُ

أبا لُغَـورِ أم بالجلْس أم حيثُ تلتقي ... أمـا عـزٌ من وادى بُـريطٍ وأبطحُ

تصور الأبيـات المعركة بين الـرجل (الشاعر) وزوجتـه الشرسة المتوحشـة المتحفزة ، فهى تداوره حتى تكبّه وتطرحه أرضًا ، وعيناه معلقتان بالعصا .. لقد علمته الوقذ وهو الضرب حتى يشرف على الهلاك ثم تجره مغشيًا عليه إلى الماء فتنضحه به حتى يفيق .

إنـه يقـول لنفسـه بعـد أن يفيق أين كنت ، ويتلفت فيرى رجـالاً قيـامـاً والنسـاء يقلن «سبحان الله» من هول ما رأين من سوء فعل زوجته به .

ويستمر جران العود فى وصف واقعه المرير بين زوجتيه فيقول :

خذا نصف مالى واتركا لى نصفه ... وبينا بذم فالتَّعزُّبُ أرْوَحُ

فيارب قد صانعت عامًا مجرمًا ... وخادعتُ حتى كادتِ العينُ تمصَحُ

وراشيت حتى لو تكلف رِشوتي ... خليج من المرّان قد كاد ينزحُ

أقول لأصحابى أُسِرُّ إليهمُ ... لى الويل إن لم تجمحا كيفَ أجمحُ

أأترك صبيانى وأهلى وأبتغي ... معاشًا سواهم أم أقِرُّ فأذبحُ

عندما يصل القص الشعرى بالحدث إلى الذروة نجد الشاعر يطرح حلاً ، لكنه ليس حلاً مسطحًا بل حل معقد فهو يطلب منهما أن يأخذا نصف ماله ويتركا له النصف ، وأن يفارقاه فالتعزب أحسن من ذلك الزواج ، لقد صانعهما عامًا كاملاً ، وخادع وسالم حتى كادت العين يذهب ماؤها من هذا العذاب .

ويستفهم حائرًا أيترك صغاره وأهله ويبتغى معاشًا غيرهم أم يفر ويستسلم فيذبح ويموت .

أُلاقى الخنا والبَرْح من أمّ حازم ... وما كنتُ أَلْقَى من رزينةَ أبرحُ

تُصَبِّر عينيها وتعصبُ رأسَها ... وتغدو غُدُوَّ الذئب والبومُ يضبَحُ

ترى رأسَها فى كل مَبْدى ومَحْضَرٍ ... شعاليلَ لم يُمْشَطْ ولا هو يُسْرحُ

وإن سَرّحَتْهُ كان مثل عقارب ... تشول بأذناب قصار وترمَحُ

تخطى إليّ الحاجرين مُذِلَّةً ... يكاد الحصَى من وطئها يترضَّحُ

كنانٌ عَفَرناةٌ إذا لحقتْ به ... هوى حيث تُهويه العصا يتطوّحُ

لها مثل أظفار العُقابِ ومَنْسِمٌ ... أَزَجُّ كظنبوب النعامة أرْوَحُ

إذا انفلتت من حاجرٍ لحقتْ به ... وجبهتها من شِدَّة الغيظ ترشحُ

وقالت تبَصَّرْ أصْلَ أُذْنِهِ ... لقد كنتُ أعفو عن جران وأصفحُ

فَخَرَّ وقيذًا مسلحبًّا كأنّه ... على الكسر ضبعان تَقَعَّرَ أملحُ

ولمّا التقينا غُدوةً طال بيننا ... سبابٌ وقَذْفٌ بالحجارة مِطَرحُ

أُجَلِّى إليها من بعيد وأتّقي ... حجارتَها حقًا ولا أتَمَزَّحُ

تَشُجُّ ظنابيبى إذا ما اتّقَيْتُها ... بهنّ وأُخرى فى الذؤابة تَنْفَحُ

يعيد قص ما يلاقيه من عـذاب وأذى وشر من زوجتيه أم حازم ورزينة ، وكيف أنها تصبر عينيها وتعصب رأسها وتغدو غدو الـذئب والبوم تضبح ، وشعرها شعاليل لم يمشط ولم يسرح فإذا سرحته كـان كأذناب العقارب تتحفـز به كالجنية تهوى عليـه بالعصا فيهـوى حيث تهويه العصا ، لها مخالب كمخالب العقاب إذا رآها خّـر مغشيًا عليه ، وإذا التقيا طال بينهما السباب والتقاذف بالحجارة .

وهى صورة ثانيـة تعمق من مأساة الشاعر وتجسد الأذى الذى يـلاقيه من زوجتيه ، وهى مع مافيها من المبـالغة والغلو جد قريبـة من الواقع ، ومع حرص الشاعـر على استيفاء عناصر الموضوعية والـواقعية فإنه قد وفر لها عنـاصر الشعرية وأبعادها . وتقترب ممـا يطلق عليه منظرو القصة بتكنيك الاسترجاع ، حيث أعـاد عرض صور جديدة للأذى الذى يـلاقيه من زوجتيه ، فكأن الحل الذى وصل إليه آنفًـا حل لم يكن حلاً مقبولاً منه فبدأ يعيـد سرد الأحداث لعله من خلال ذلك يصل إلى حل جديد ، يقول :

أتـانـا ابن روق يبتغى اللهو عنـدنـا ... فكـاد ابن روق بين ثـوبيـه يسلح

وانقــذنى منهــا ابن روق وصــوتها ... كصوت علاة القين صلب صميدح

وولى بــه راد اليــديـن عظـامــه ... على دقق منهــا مــوائر جنـح

يقدم لنـا جران العود صورة جـديدة من صور مأسـاته مع زوجتيه ، فحتى صـديقه (ابن روق) لم يسلم من هذه الزوجة الشرسة الحمقاء ، فهـو عندما رآها بتلك الصورة البشعة المخيفة التى تحدث عنها جران وبخاصـة صلابة صوتها الصميدح الذى يشبه صوت علاة القين كاد يسلح فى ثيابه خوفًا وفزعًا ، لكن دخوله عليها فى هذا الوقت العصيب كان سببًا مباشرًا فى إنقاذ جران العود من المأزق الذى هو فيه .

ولسن بـأســواء فمنهن روضــة ... تهيج الـريـاض غيرهـا لا تصـوح

جماديـة أحمى حـدائقهـا النـدي ... ومــزن تـدليــه الجنـائب دلح

ومنهـن غـل مقمـل لايفكــــه ... من القـوم إلا الشحشحـان الصرنقع

عمـدت لعـود فـالتحيت جـرانـه ... وللكيس أمضى فى الأمـور وأنجح

وصلت بــه من خشيـة أن تـذكـلا ... يمينى سريعًـا كـرهـا حين تمرح

خــذا حــذرا يـا ضرتى فـإنني ... رأيت جـران العـود قـد كـاد يصلح

يمثل هذا الحديث عن النساء تمهيدًا لبناء موقف موضوعى من زوجتيه الشريرتين انطلاقًا لبناء علاقة جديدة مع المرأة ، وهو ما نراه فى قصائد أخر لجران العود ؛ فهو يصف النساء بأنهن لسن بأسواء فهن غير متساويات ، فمنهن روضة نضرة سقتها الأمطار فأينعت ولم يمر بها أحد ولم يرع كلؤها ، وغيرها قد يهيج ويصفر .. ومنهن غُل مقمل لايفكه إلا الشحشحان الصرنقح ، أى الرجل الماضى فى الأمور ، وهما نقطتان تمثلان صوتيًا للشدة والغلظة المطلوبة لبناء موقف حاسم من هاتين المرأتين الشرستين ، ولهذا فإنه يصرح أنه عمد إلى باطن عنق بعير مسن فجعل منه سوطًا .. وتمثل جملة (وللكيس أمضى فى الأمور وأنجح) الأساس النظرى الذى بنى عليه جران العود موقفه ، وهو أن يخضع زوجته بالقوة والضرب .

لقد وصل بالسوط يمينه خشية أن يصير إلى حكمهما .. ثم يختم حائيته فيقول : خذوا حذرًا يا ضرتى فإننى رأيت هذا السوط الذى صنعته من جران العود أى من عنق الجمل المسن قد أوشك أن يصلح لتأديبكما ، ولابدع أن يسمى الشاعر باسم السوط «جران العود» ، لأنه بهذا السوط قد أعاد لنفسه كرامتها ، واستطاع به أن يقف من شر زوجتيه فإذا كان الرجل موقف ، وبجران العود استطاع الشاعر عامر ابن الحرث أن يكون له موقف فلا بدع أن يسمى جران العود .

وقد نجح الشاعر فى أن يختتم قصته الشعرية وهو ختام يمثل حلاً فنيًا للقصة حيث نرى انتصارًا على الشر المتمثل فى الزوجتين الشرستين ، وهو انتصار مبرر ، لأن الإحساس بالظلم يولد الثورة فى نفس المظلوم ، وقد أحسسنا مع جران العود بالظلم ، حتى إذا واجه الظلم والشر والقبح أحسسنا أنه قد انتصر واقتص لنا من هاتين المرأتين .

وقد استطاع الشاعر أن يوفر لتلك القصة الشعرية شعريتها وقصصيتها فى آن واحد ، أى أن يوفر لها الوسائل والأدوات والتشكيل الذى يجعل منها شعرًا جيدًا وقصة جديدة أو بمعنى آخر قصة شعرية ، وهذا أمر يمثل ظاهرة تجريدية فى حد ذاتها بالنسبة للعصر ، فإذا أضفنا إلى ذلك جدة الموضوع والمحتوى ، فإننا نكون قد كشفنا عن ظواهر تجريدية مهمة فى ذلك النص القديم .

لقد حرص الشاعر على انتقاء ألفاظ قوية معبرة ، تكون أحيانًا غريبة ، وتلك الغرابة لاتخل بالفصاحة ، بل هى ملائمة للموقف ومتناسبة مع الحال التى يصورها .. وهذه الألفاظ

مثل : شعاليل ، مسلحبا ، الشحشحان ، الصرنقع ، الصميدح ، إلى غير ذلك من الألفاظ الغريبة القوية التى تتلاءم مع المعنى الذى ينشده الشاعر وهو تصوير قبح امرأتيه وإبراز بشاعتهما .

وقد اختار لهذه القصيدة قافية بنيت على حرف «الحاء» المضمومة ولهذه القافية أثر كذلك فى إبراز مقصده ، وكأنه لفظ «القبح» قد خيم على الشاعر وتغلغل فى وجدانه وترسخ فى أعماقه، فاختار تلك القافية لقصيده التى يصور فيها قبح زوجتيه .

• • •

أبو ذؤيب الهذلى يرثى أولاده الخمسة

● التعريف بالشاعر :

اسمه خويلد بن خالد بن محرث ، وهو من قبيلة هُذَيْل التى تسكن منطقة الطائف .

ولد قبـل الإسلام ، ثم هداه الله لـلإسلام فأسلم ، روى صـاحب الأغانى أنـه دخل على عمر بن الخطاب فقـال : يا أمير المؤمنين أيّ العمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ورسـوله ، قال : قد فعلتُ ، فأيها أفضل بعده ! قال : الجهـاد فى سبيل الله . قال : ذلك عليّ ، وأنى لأرجو جنـة ولا أخاف نـاراً ، ثم خرج فغـزا مع المسلمين أرض الروم ، وفى طـريق عودتـه حضرته الـوفاة ، ومات سنة ١٤ هـ أو سنة ٢٦هـ[1] .

ويُعد أبـو ذؤيب من كبار شعراء عصره ، قال عنـه ابن الإسلام الجمحى : « كان شـاعراً فحلاً لا غميزة فيـه ولا وهن » . وتعد قصيدتـه فى رثاء أبنائه ـ الذيـن ماتوا جميعاً بـالطاعون فى عام واحد فى مصر من أشهر قصائده ، كما تعتبر من غرر قصائد الرثاء فى الشعر العربى ..

وعدد أبيـات القصيدة خمسـة وستون بيتـاً ، وسنحاول دراسـة القسم الأول منهـا ، وعدد أبيات هذا القسم خمسة عشر بيتاً :

قال الشاعر :

أَمِنَ الْمَنُـــونِ وَرَيْبِهَـــا تَتَـــوَجَّـعُ ؟ وَالـــدَّهْـــرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَـنْ يَجْزَعُ

قَـالَتْ أُمَيْمَـةُ : مَـا لِجِسْمِكَ شَـاحِبـاً مُنْـذُ ابْتُـذِلْـتَ ؟ وَمِثْلُ مَـالِـكَ يَنْفَعُ !!

أَمْ مَـا لِجَنْبِـكَ لاَ يُـلاَئِمُ مَضْجَعَـا إِلاَّ أَقَـضَّ عَلَيْـكَ ذَاكَ الْمَضْجَـعُ ؟!

فَـأَجَبْتُهَـا : أَمَّـا لِجِسْمِىَ أَنَّـهُ أَوْدَى بَنِىَّ مِـنَ الْبِـلادِ فَـوَدَّعُـوا

أَوْدَى بَنِـىَّ وَأَعْقَبُـونِـى غُصَّـةً بَعْـدَ الـرُّقَـادِ وَعِبْرَةً لاَ تُقْلِـعُ

سَبَقُـوا هَـوَىَّ وَأَعْنَقُـوا لِهَوَاهُـمُ فَتُخِـرِّمُـوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فَغَبَرْتُ بَعْـدَهُـمُ بِعَيْشٍ نَـاصِبٍ وَإِخَـالُ أَنِّـى لاَحِـقٌ مُسْتَتْبِعُ

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ٦/ ٥٦ وما بعدها ، وفى الأعلام ١/ ٣٠٠ .

وَلَقَدْ حَرِصْتُ بِأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُ   فَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لاَ تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا   سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ
حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ   بِصَفَا الْمُشَرَّقِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ
وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ   أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا   وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
وَلَئِنْ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ   إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفَجَّعُ
كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمِ الْقُوَى   كَانُوا بِعَيْشٍ قَبْلَنَا فَتَصَدَّعُوا[١]

« البكاء شعور وجداني وإنساني ، يقع في نفس الشاعر فيعتلجُ لسانه بالقول ، وينطق بمكنون صدره ، فيعبر عن ذلك بما اصطلح عليه فن الرثاء ، فالرثاء يصور بكاء الإنسان لأخيه في المأساة ؛ بل بكاء الإنسان لنفسه لأن القصة ذاتها تتكرر على توالي السنين ، فمن يبك اليوم لابد أن يبكيه الآخرون غداً ، والبرية تمر من بوابة الموت لتدخل إلى عالم آخر »[٢] .

وأبو ذؤيب الهذلي ذاق مرارة الألم والحرمان عندما فقد أبناءه الخمسة ، ولم يستطع كتم هذا الألم ، فجاشت شاعريته بهذه القصيدة الجميلة التي تحدث فيها عن فلسفة الحياة والموت من منظور إسلامي لا يرى الموت نهاية الحياة بل بدايتها .

وفي بيته الأول يتساءل الشاعر وهو يعرف الإجابة ـ : هل من الحكمة والتعقل أن نجزع ونألم من نائبات الدّهر وفواجعه » ثم لو فعلت هذا هل سيتراجع الدهر (الموت) عمّا سيفعله ؟! فإذا كانت الإجابة بالنفي - وهذا ما نعلمه جميعاً - فما فائدة التمادي في الحزن والبكاء . ولعلّ الشاعر في مطلعه هذا نظر إلى قصيدة سعدى بنت الشمردل لأخيها أسعد بن مجدعة الهذلي والتي تقول فيها[٣] :

---

(١) ديوان الهذليين - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٥هـ ١٠/ ١-٢ .
(٢) الرثاء في الجاهلية والإسلام ، / حسين جمعة ، دار معد للنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٩١م ص ١٩ .
(٣) شاعرات العرب ، ص ١٥٩ .

أمِنَ الحوادث والمنون أُرَوِّعُ ... وأبيتُ ليلى كلّه لا أهجعُ

ثم تقول بعد ذلك :

إنَّ الحوادث والمنونَ كليهما ... لا يعتبان ولو بكى من يجزعُ

أمّا البيت الثانى :

قالت أميمة : ما لجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ؟ ومثلُ مالك ينفعُ

نلاحظ أن الشاعر استدعى « أميمة » لتشاركه فى أحزانه ، ولتحاول التخفيف عنه .

ونحن لا ندرى من أميمة هذه ؟ أهى زوجته أم ابنته أم إحدى قريباته ؟ أم أنها اسم لا حقيقة له ، وإنما اللافت للنظر أنها امرأة ، والمفترض فى مثل هذه المواقف أن تكون المرأة أكثر حزناً من الرجل ، وأقل تحملاً للمعاناة والألم ، فما بالها هنا هى التى تواسيه وتخفف عنه وتقدم له النصائح ؟! إن الشاعر يريد أن يؤكد على أن ألمه مما لا يحتمل ، وأن النساء - وهى أولى بالمواساة - قمن بهذا الدور معه لشدة ما يعانى مما استوجب معه شفقتهن وعطفهن وتنصحه أميمة هنا - وقد رأت ذبول جسمه وشحوب لونه - أن يستعين بماله فى إيجاد من يقوم بخدمته وقضاء حوائجه ، فالمحزون الضعيف لا يستطيع فعل هذا ..

وتتوالى معاتبة أميمة للشاعر ، فهى تعجب من عدم استطاعته النوم ، ومن مجافاة جنبه للفراش .

والاستفهام فى البيتين الثانى والثالث يؤدى وظيفة بيان ما لحق به وينكشف عن إنكار زوجته لألمه وعذابه ، وهو يتصل بالموضوع اتصالاً وثيقاً ، وعلى الرغم من تكرار الاستفهام فى عبارات تكشف عن مأساة الشاعر فى تفصيل فإنه قد قدمه فى عبارات مركزة ، فقوله : ما لجسمك ناحلاً ؟ يركز الصورة التى يبدو عليها الشاعر بعد فقد أولاده ، أما قوله : « منذ ابتذلت » فإنه يلخص ما ألم به ، ثم يأتى البيت الثالث مصدراً معاناته من خلال الاستفهام والقصر ، كما نجد الشاعر يستدم ما يسميه البلاغيون برد الإعجاز على الصدور وهكذا تتراكب الرسائل البلاغية فى البيت صياغة جيدة تكشف عن الألم الذى يعانيه الشاعر[1] .

وأمام هذا السيل من العتاب الذى قصد به مواساة الشاعر يجد نفسه يتحدث عن مصابه الذى سبب له كل هذا الألم ، فأولاده قد ودعوا هذه الحياة ، بلا رجعة ، والأمل فى لقائهم - فى الحياة - معدوم ، ، وقد ترك له هذا الفراق الأبدى غصة وعبرة لا تنتهى .

---

(١) الإنسان والزمان فى الشعر الجاهلى . د/ حسنى عبد الجليل ص ٨٢ .

كم كان يتمنى أن يموت قبلهم ، لكنهم بموتهم حرموه هذه الأمنية فقدموا هداهم على هداه، فماتوا قبل أن يموت فكان عليه أن يتجرع كل هذه الآلام والأحزان .

لقد عاش بعدهم فى نصب وتعب ومعاناة دائمة ، غير أن الذى يخفف عنه شعوره أنّه لاحِقٌ بهم عمّا قريب .

وبعاطفة الأب الصادقة الحانية يقول الشاعر: كم كنت أتمنى أن أتمكن من الدفاع عنهم ، وأن أحميهم من سطوة الموت ، ولكن الموت كان أقوى ممّا تمنيت .

ونلاحظ أن الشاعر قد أكثر من استخدام الأفعال ، وهذا الاستخدام المتكرر « أبرز حركة الحدث (...) وأبرز الفكرة المتسلطة على نفس الشاعر وهى فكرة هلاك أبنائه (...) وينتهى البيت السادس بتلخيص للأساس الذى تتحرك الأحداث من خلاله (فلكل جنب مصرع) فما حدث لأولاده هو سنة الحياة والوجود»[1] .

إن الموت إذا جاء لا يمكن دفعه ولا مقاومته . فهو كالأسد الكاسر إذا أنشب أظافره فى جسد مزقه وقضى عليه . ويستخدم الشاعر « الإستعارة المكنية » حيث صور الموت وحشاً كاسرة تنشب أظفارها فى جسد فريستها ، وقد حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو « الأظفار » . هذه الأظفار التى تنشب فى الفريسة فلا تتركها حتى تقضى عليها فلا تنفعها كلّ الاحتياطات التى تفعلها للدفاع عن نفسها .

وتتوالى أحزان الشاعر ، وتتأثر بهذه الأحزان ، فعينه من شدة البكاء أصبحت وكأنها سملت بشوك جعل دمعها لا يتوقف .. وكأنى بالشاعر ينظر إلى الخنساء وهى تبكى أخاها صخراً فتقول :

ما هاج دمعك أم بالعين عُوّارُ   أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدارُ

وبعد هذا المشهد الحزين الذى حشد له الشاعر كل طاقته ، فبكى وأبكى ، يلتفت الشاعر إلى نفسه مرة أخرى فيجد أنه لابدّ أن يتجلد وأن يصبر ، وأن لا يدع للشّامتين فرصة يتندرون بها عليه .

وتجلدى للشامتين أريهم   أنىّ لريب الدهر لا أتضعضع

---

(١) الإنسان والزمان فى الشعر الجاهلى ، ص ٨٢ .

(٢) شرح ديوان الخنساء لأبى العباس ثعلبى ، دار الكتاب العربى - لبنان - ص ٢٢٥ ط ، ١٤١٦هـ .

وينطلق الشاعر ليتحدث عن قضية نفسية يشعر بها الإنسان ويحس بها ويعانى منها ، إنّ النفس الإنسانية قابلة للتوجيه والتدريب ، فهى تنساق وراء رغباتها وشهواتها إذا أطلق لها العنان ، كما أنها تكتفى بالقليل وتقنع به إذا عرفت أن لا سبيل إلى سواه .. يقول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها فإذا ترد إلى قليل تقنعُ

ولعل البوصيرى نظر إلى هذا المعنى فى ميميته فى مدح الرسول ﷺ عندما قال :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

فحاذر هداها واحذر أن توليه إن الهوى ما تولى يُصمِ أو يَصَمّ

ويعود الشاعرُ ليتحدث مرة أخرى عن آلامه ومصائبه ، والواضح أن تكرار الحديث عن هذه الآلام يدل على تمكنها من نفسه وسيطرتها عليه فهو يدور فى فلكها ولا يستطيع منها فكاكاً ، يقول :

ولئن بهم فَجَعَ الزمان وريبه إنّى بأهلِ مَوَدَّتِى لمفجّعُ

فهو يستخدمُ اللام المواطئة للقسم « لئن » ليؤكد صدقه فيما يقول ، ثم يقدم « بهم » ويعنى أولاده الخمسة ، ، يقدمها على « الاختصاص » والتقديم فيه معنى الالتصاق والمحبة ، فهؤلاء الخمسة الأحباب إذا كان قد فجع بهم ، وآلمته هذه الفجيعة ، فإنّ هذه المصيبة ليست الأولى فى حياته ، فقد تعوّد أن يُفَجّع بأهل مَوَدّته ، فأصبح الألم جزءًا من حياته ، تعوّد عليه وصحبه ، ويحاول الشاعر فى البيت الخير أن يدحل الطمأنينة على نفسه ، وأن يجعل القناعة بما حصل له أمر لابد منه ، فيلجأ هنا إلى استعادة تاريخ الأمم كلها ، هذه الأمم التى كان مصير أفرادها الزوال ، ومصير جماعاتها التفرق والاضمحلال ، فالناس لا يهنئون بعيش على الدوام ، فمصيرهم الزوال والفناء ، وما دام أمر جميع الناس هكذا فلماذا لا يتحمل مصيبته بالرضى والقبول والصبر والاطمئنان .

ولعله بهذا البيت أدخل نوعاً من الهدوء على نفسه ، وحاول التخفيف من مصابه ، حيث يبدو أنه لا أَحَدَ يفعل هذا معه .

لقد استطاع الشاعر من خلال هذه القصيدة أن يقدم لنا نموذجاً للإنسان الحزين الذى امتلأ حزناً وألماً لفقده أولاده ، كما استطاع أن يعبر عن تجربته بأسلوب واقعى متميز ورؤية واضحة لحكمة الله فى خلق الإنسان وفى إفنائه .

● ● ●

جميل بن معمر مع بثينة

أولاً : التعريف بالشاعر :

هو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى ، نال شهرته عندما بدأ حبه لبثينة ، ولا يعرف على وجه التحديد متى بدأ هذا الحب . وقد ولد جميل فى أواخر خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ومات سنة ٨٢ هـ[١] وله ديوان شعر مطبوع .

ومات سنة ٨٢ هـ[١] وله ديوان شعر مطبوع .

النص :

أبثين إنك قــــد ملكـت فـــاسجحى[٢] ... وخـــذي بحظك من كــــريـم واصل

فلـــربّ عــــارضــــةٍ علينـــا وصلهـــا ... بـــالجدّ تخلطــــه بقـــول الهازل

فـأجبتهـــــا فى القــــول بعــــد تستر ... حبى لبثينــــة عن وصـــالك شـــاغلى

لــو كــان فى صــدرى كقــدر قـلامــة[٣] ... فضـــــلاً وصلتك أو أتتـك رســـــائلى

ويقلـن إنك قــــد رضيـت ببــــاطـلٍ ... فيهـــا فهـل لك فى اجتنــاب البــاطِل

صـــادت فـــؤادى يـــا بثين حبـــالكم ... يـــوم الحجـــون وأخطـأتِك حبـــائلى

وتثـــــــــاقلــت لما رأت كلفـى بها ... اِحبـب إلىّ بـــــذاك مـن متشــــاقـل

وأطعـتِ فىّ عــــواذلاً فهجــــرتنـى ... وعصيت فيك - وقـد جهدن - عـواذلى[٤]

التحليل :

الحب العذرى المنسـوب إلى قبيلة عـذرة القضاعيـة - وموطنهـا فى شمال غرب الجزيـرة العربيـة - يتميز بإخلاص المحب لمحبـوبته ، فهو لا يلتفت إلى سـواها مهما كانت المغـريات ومهما لقى من المصاعب والمصائب فى سبيل حبه .

وجميل بن معمر واحد من أشهر شعراء هذا اللون من الغزل وقد اقترن اسمه باسم محبوبته بثينة ، وله فيها قصائد كثيرة ، أودعها لواعج حبه ، ومكنونات غرامه .

---

(١) انظر ترجمته بالتفصيل فى الأغانى ٨/ ٩٢ طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .

(٢) اسجحى : إحسنى إلىّ .

(٣) القلامة : الشيء الصغير الذى لا قيمة له .

(٤) ديوان جميل ص ١٧٩ .

ويبدأ جميل هـذه القصيدة بنـداء محبوبتـه « بثينة » نـداءًا مرخماً « بثن » وفيـه دلالة الـوله والتلطف والتودد، وقـد استخدم حرف الهمزة فى نداء محبـوبته ، وهو حرف لنـداء القريب ، ولا شك أن القرب هنـا قرب نفسى فهى - على بعدها منـه - قريبة من نفسه وقـد استخدم حرف الهمزة فى نداء محبـوبته ، وهو حرف لنداء القريب ، ولا شك أن القـرب هنا قرب نفسى فهى - على بعدها منه - قريبة من نفسه ، ويقول لها : إنك ملكت فؤادى فارحمينى وتلطفى بى . ولعل جميلاً تعمـد استخدام فعل « ملكت » للدلالة على أنـه أصبح كله لها وحدها ، فهى مـالكته ، وهى سيدته ، وهو كالعبد بين يديها ، وفيـه إيحاء بمدى تعلقه بها وحبه لها . وقد استخدم فعـل « إسجحى ، خذى » وهى تـدل على الرجاء وإن كانـت قد جاءت بصيغة الأمـر ، وهى تأكيد آخر على مدى تعلقه بها .

وقد وصف جميل نفسه بأنه كريم واصل ليـدلل على شرف حبه لها وعلى أنه كذلك مداوم على حبه الذى لا يمكن أن ينقطع .

ويتحدث جميل بعد ذلك عن امرأة أخرى حاولـت بكل جهدها أن تصرفه عن حبه لبثينة وأن تجعله لها وحدهـا ، وقد استخدمت لهذا الغرض وسائل متعـددة ، فهى التى بدأت بعرض رغبتها عليـه وهذا أمر غير معتـاد ، ثم حاولت استخـدام أسلوب الهزل الممزوج بـالجد لتعرف رأيه فى عرضها ، لكنه يلاقى كل هذا الإغراء بالصد والابتعاد ، فحبه - كما يقول - لبثينة لم يبق لغيرهـا موضعـاً . وقد استخـدم جميل حرف « لـو » فى مطلع البيت الرابع وهـو جرف امتنـاع لامتنـاع ليدلل على أن قلبـه ليس فيـه أدنى متسع لغير محبـوبته حتـى ولو بقـدر قـلامة ظفـر واستخدام الشاعر لـ « رب » فى مطلع البيت الثانى يدل على أن هناك أكثر من واحدة عرضت نفسها عليه ، وامتنـاعه عن قبول عرض الجميع يـؤكد المعنى الذى أراده الشاعـر وهو التدليل على شدة تعلقه بحبيبته .

ويشير الشاعـر فى البيت الخامس إلى ما فعلته تلك اللواتى عـرضن أنفسهن عليه حيث حـاولن إقناعـه أن حبه لبثينـة لا طـائل من ورائه ، وأن الخير - كل الخير - له أن يجتنب هـذا الحب وأن يبتعد عنه .

ويحاول الشاعر أن يعقد موازنة بين موقف حبيبتـه منه وموقف أولئك النسوة منه ، وموقفه هو بالتالى ممّا يشاهد .

إن حبيبته تتمنع عليه ، وهو فوق كذلك تطيع عوازله فتهجره ، أمّا أولئك النِّسوة فهن على النقيض تماماً ممّا تفعله حبيبته ، فهن يرغبن فيه ، وهن يبـدأنه بإظهار هذه الرغبة ، ولكنه يمتنع عن الاستجابة وينصرف إلى حبيته وحدها ، ولن يقبل أن يسمع فيها ما يبعده عنها .

والشاعر هنا يستخدم بعض الأفعال التى تشير إلى أن محبوبته لم تصده كل الصد ، وإنما هى تتثاقل فقط ، أنها تعطيه ببطء وتسير إليه خطوة خطوة ... إن هذا التثاقل دليل الطهارة والعفة ، وهو يحب هذا التصرف ويعجب به أشد الإعجاب ، والشاعر يصرح بإعجابه صراحة فهو يقول : « إحبب إلىّ بذاك من متثاقل » .

وكأن الشاعر - وهو يستخدم الطباق فى « أطعت ، وعصيت » يعاتب بثينة على موقفها منه ، ويشعرها بمدى الفارق بين حبه لها وحبها له ، وقد استخدم فعل « جهدن ليؤكد على مدى الجهد المبذول فى محاولة إبعاده عن حبيبته من قبل أولئك النسوة ، وكيف استطاع مقاومة كل هذا الجهد والانتصار عليه مما يؤكد عمق ارتباطه ببثينة وحبه لها .

• • •

خطبة الوداع

● قال عليه الصلاة والسلام وهو يخطب فى المسلمين فى حجة الوداع :

« إن الحمد لله نحمده ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مُضِلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذى هو خير .

أما بعد : أيها الناس ، إسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذ . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد . فن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحاث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ؛ غير السدانة والسقاية ، والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات ، وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان . إلا هل بلغت ، اللهم اشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، وإن لكم عليهن حقاً ، لكم عليهن إلا يواطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ باذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تفصلوهن وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، لا يملكن

لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً .

أيها الناس : إنما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلاّ عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا ، كتاب الله .. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز وصية فى أكثر من الثلث، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله[1] .

● **تحليل النص :**

« كلام النبى ﷺ هو الكلام الذى يلى منزلة القرآن الكريم احتراماً وإجلالاً ، وقد اجتمعت فيه فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسن الأداء ، بلغ من البلاغة الذروة ، ووصل من الروعة إلى القمة ، هو جوامع الكلم ، وفيه روائع الحكم ، هو القول الفصل ، لا فضول فيه ولا تزيد ، أخذ من القرآن الكريم ، وأوحى إليه به الرحمن ، لكلامه جلال لا نجده فى سواه ، وتحيط به هالة روحية تحس منها بشعاع النبوة »[2] .

كان النبى ﷺ يقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، وكان خلقه القرآن ، هكذا قالت عنه أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – وقد وصفه الرحمن بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

---

(١) وردت هذه الخطبة بألفاظ متعددة ، انظر إليها فى : صحيح البخارى ، كتاب الحج برقم ١٦٢٥ ، ومسلم فى كتاب الحج برقم ٣٧ ، وأبو داود فى المناسك برقم ١٦٢٨ ، وابن ماجه فى المناسك برقم ٣٠٦٥ وغيرها.

(٢) الخطابة ، أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب ، محمد أبو زهرة ، ص ٢٦١ .

إن الصفـات التى اجتمعت للنبى ﷺ لم تجتمع لشخص قط ، وكـانت بلاغتـه فى الدرجـة التى تلى القـرآن الكريـم ، وكان صحـابتـه الكرام يتعجبـون من فصـاحته التى كـانت تأخـذ بمجامع القـلوب ، وكانوا - رضى الله عنهـم - إذا أظهـروا له تعجبهـم من بلاغته وهو الذى عاش معهم، وولد بينهم ، كان يقـول لهم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، نعم أدبه ربه ، ومن أحسن ممن تلقى الأدب عن ربه ؟

وخطبته ﷺ فى حجـة الوداع مـن أطول خطبه ، وأكثـرها شمـولاً ، وقد تحدث فيهـا عن قضايا كثيرة تهم المجتمـع المسلم فى عصره وبعد عصره ، وكان - عليه الصـلاة والسلام - وقد اجتمع لـه هذا العـدد الكبير فى مـوسم الحج يريـد أن يبلغهم بعض الـوصايـا ، ويلقى إليهم ببعض المواعظ .

ابتدأ الـرسول خطبته بتأكيـد وحدانية الله سبحـانه ، فهـو واحد لا شريك له ، لـه وحده الحمد والشكـر والاستغفار .. وكأنى بـالرسول ﷺ يـريد أن يوصل عقيـدة التوحيـد فى نفوس المسلمين وأن يؤكد على زوال الوثنيـة والأصنام وتعدد الآلهة فى جزيرة العرب ، هـذه الوحدانية التى قـاتل الرسـول ومن معـه سنين طويلـة من أجلهـا ، واستشهد فى سبيل تحقيقهـا عشرات المسلمين .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ كان يستخدم الجمع فى حـديثه (نحمده ، نستغفره ، نتوب إليه ، نعوذ بالله) وكأنـه يرى أن يؤكد على عموم وحدة المسلمين ، وأنهم جميعـاً - وليس هو وحده - قـد نالـوا نعمـة الله فاستحق بـذلك حمدهم واستغفـارهم . ونلاحـظ كذلك تكـرار ورود لفظ الجلالة « الله » ، وهذا التكرار يؤكـد عمق الارتباط الذى ينبغى أن يكون بين المسلـم وبين ربه ، كـم يؤكد فى الوقت نفسه على توحيد الله وافراده بكل أنواع العبادة .

والرسول ﷺ بهذه الافتتاحية يؤكـد على الركن الأول من أركان الإسلام - وهو شهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هذا الركن الذى لا يتم إيمان المرء إلا به .

ومعلوم أنه ﷺ ابتدأ دعوته الكريمة بالتأكيد المطلق على وحدانية الله ، وكان يعلـم أن هذا المعنى بحاجة إلى تأكيـده مرات ومرات لأن الشرك قد يتغلغل إلى النفوس بطرق متنـوعة ، وقد يغفل المرء عنه فيقع فيه من حيث لا يشعر .

وبعد هـذه المقدمـة ينتقل الـرسول ﷺ إلى صلب الموضـوع ، وكان السـامعون قـد تهيئوا لسماع ما يقـوله ، فخاطبهم بصيغة الجمـع : « أيها الناس » هذه الصيغة التى تـدل على عموم

رسالته ، وأنها للناس كـافة ، وليست لأمة دون أخرى ، ويستخدم الرسـول ﷺ كذلك أسلوب التشـويق لحث الناس إلى الانصراف إليـه بكل حـواسهـم ، فيقول : « اسمعـوا منى أبين لكـم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى مـوقفى هذا » فإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان هذا الحديث الـذى سيسمعونـه هو آخر كـلام قد يسمعونـه من رسولهم الكـريم أفلا يستحق الأمر منهم إلى السماع الواعى ؟! نعم أنه يستحق ذلك دون شك .

ويبـدأ الرسـول فى الحديث عن بعض الجوانب التى تتعلق بـالتشريع الإسلامى ، فيقـرر حرمة المال وحرمة الدماء ، وهو بهذا يمس جـانباً هاماً من جوانب حياة المسلمين وهو جانب الأمن الـذى يحتاجـه كل فـرد مسلم ، ولعلّ الرسـول الكريـم كان ينظـر إلى حالـة المجتمع فى الجزيرة قبل الإسلام حيث كـان الاعتداء على الأموال والأعراض وسفك الدمـاء أمر شائع بين الناس ، وحيث كان الأمن معـدوماً فى الجزيرة العربيـة ، ولأن المجتمعات لا يمكن أن تقوم أو تتقدم إلاّ إذا كانت آمنة مطمئنة ، فقد استخدم عليـه الصلاة والسلام كل ألفاظ التأكيد ليؤطر الهدف الذى كان يرمى إليه .

إن حرمة الدماء والأمـوال كحرمة يوم عرفة ، وكحرمة شهـر ذى الحجة ، وهو من الأشهر الأربعـة الحرم ، وكحرمـة مكة الكـرمة . وهـذه الحرمات الثـلاثة مجتمعـة تساوى حـرمة دمـاء المسلمين وأموالهم .

إنّ هذا التكرار يؤكد هيبة ومكانة الموقف والزمان والموضوع وبالتالى يعطى بعداً للموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب ، ويجعل السامعين يلتصقون به أشد التصاق .

ويتحدث الـرسول ﷺ بعد ذلك عن بعض الموضـوعات الاجتماعية ، فيؤكـد من خلالها على أهمية تلاحـم المجتمع المسلم ، وأنه ينبغى أن يكون كالجسد الواحد .

والملاحظ – مرة أخرى – أن الموضوعات التى يحث عنها الرسول الكريم كانت تمارس فى الجاهلية بصورة سيئة فردية ، فكان الـرسول – وهو بالناس رؤوف رحيم – حريص كل الحرص على تخليص أمته من هذه العادات السيئة والتى تمس جوهر حياة الناس .

فتحدث الـرسول الكريـم ﷺ عن أهميـة أداء الأمانات والمحافظـة عليها ، كما تحدث عن خطر الربا وحرمته ، وأشار إلى خطورة التفاخر بين المسلمين ، وأبقى المآثر المتعلقة بخدمة بيت الله ليجعل المجال مفتـوحاً بين المسلمين لخدمـة الحجـاج والحرص على راحتهم وتيسير أمور حجهم .

وتحدث الرسول ﷺ عن القصاص والديات منهياً بذلك عادة الأخذ بالثأر ، وهى عادة جاهلية كانت متأصلة فى نفوس المشركين .

واللافت للنظر هنا أن الرسول الكريم ﷺ يستعين على تأكيد مقولته بجعل نفسه وأهل بيته قدوة للناس فى كل ما نهاهم عنه أو أمرهم بفعله .

والقائد حينما يكون قدوة لغيره بالقول والفعل يضمن إلى حد كبير تطبيق عامة الناس للمبادىء التى يتحدث عنها ، فإذا كان الرسول الكريم ﷺ هو القائد وهو القدوة ، فما بالك بالآخرين أنهم دون شك سيسارعون إلى تنفيذ وصايا رسولهم الكريم برغبة وقناعة ودون تردد .

وبعد الحديث عن الجانب السياسى والاجتماعى يتحدث الرسول الكريم ﷺ عن بعض القضايا الدينية التى لها مساس بعقيدة الأمة وتوحيد عبادتها لخالقها .. فالشيطان لا يمكن أن يعبد بالطريقة البدائية التى كانت موجودة قبل الإسلام - ولعله يقصد عبادة الأصنام - ولكن الشيطان إذا كان قد يئس أن يعبد عبادة كاملة فهو لم ييأس من أن يحصل على أقل من ذلك من أنواع العبادات التى يظن الناس أنها صغيرة لا تؤثر فى أعمالهم .

إن حرص الرسول الكريم على أمته كان وراء هذا التحذير ليجعل كل مسلم حذراً متيقظاً كى لا يقع فريسة سهلة للشيطان ، وهذا من كمال حبه لأمته وقيامه بدعوته .

وينطلق الرسول الكريم ﷺ بعد ذلك فيتحدث عن مجموعة قضايا ، ويجعلها من أعمال الجاهلية لينفر المسلمين منها ، فيتحدث عن النسىء ويجعله أشد من الكفر ، ولا يمارسه إلا كافر ، ويقرر حرمته ويؤكد على هذه الحرمة حينما يستشهد بالقرآن الكريم على تحريم النسىء الذى كان الجاهليون يمارسونه قبل الإسلام .

ثم ينتقل الرسول ﷺ فى خطبته ليتحدث عن الأسرة المسلمة ، والأسرة هى قوام المجتمع لا يصلح بدون صلاحها ، فيتحدث عن مكانة المرأة المسلمة وعن علاقتها بالرجل الزوج وكيف ينبغى أن تكون هذه العلاقة ، فلكلٍ حقوقه وواجباته .

وتأتى أهمية هذا الحديث عن المرأة عندما نعرف كيف كانت تعامل المرأة قبل الإسلام سواء فى الجزيرة العربية أو غيرها ، حيث لم يكن لها أى قدر من الاحترام أو المكانة ، فجاء الرسول ﷺ هنا ليؤكد على مكانة المرأة ودورها وحقوقها وواجباتها .

ولعلنا لا نتصور تكريماً للمرأة أكثر من هـذا التكريم الذى يأتى من الرسول مباشرة ، وفى موقف مثل هذا الموقف ، وفى تأكيد صريح لا يقبل الجدل أو المنـاقشة : « فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيراً » .

وفى نهاية خطبته يتحـدث الرسول الكريم ﷺ عـن الإطار العام فى العلاقـات الإنسانية التى تستضىء بنور الإسلام ، فالمسلمون إخوة لا فرق بين عربى أو عجمى إلاّ بالتقوى .

ويؤكد الـرسول على معنى وحدة الجنس البشرى ، ويذهـب فى إقناع المستمعين إلى أبعد مدى ممكـن ، فالإله واحـد ، والأب واحد ، والجميع مخلـوقون مـن تراب ، فمادام الأمر كـذلك فلماذا يفخر الناس بعضهم على بعض ؟

إنّ قضية الصراع على المفاخـر الزائلة التى لا دخل للإنسـان فيها قضية مرفـوضة فى نظر الإسلام ، وإذا كان لابد من التفاخر فليكن فى مسائل يصنعها البشر ، وليس أفضل من ميدان الإيمان يتنافس المسلمون فيـه ليبلغوا فيه الذروة والمكـانة الرفيعة إن استطاعـوا . وفى هذا دعوة وترغيب شـديدين من الـرسول الكريم ﷺ لأمتـه أن تطرق أبواب الخير ، وأن تصرف قـواها فى عمل الصالحات .

وفى نهايـة الخطبـة يتحـدث الرسـول ﷺ عن قضيـة هـامـة تشغل بـال كل مسلم ، بل ويتعرض لها كل فرد فى المجتمع وهى قضية الميراث . وقد فصل فيها وتحدث عنها بدقة معتمداً على ما جاء عنها فى القرآن الكريم حيث لا يكـون هناك مجال للاجتهاد فى هذه المسألة ، وحتى تصان الحقوق ويعرف كل فرد ما له وما عليه .

نلاحظ فى هـذه الخطبة أن الرسول الكـريم ﷺ كان يستخدم باستمـرار صيغ الاستفهام والنداء خاصة بين مقاطع الخطبة « ألا هل بلغـت ؟ اللهم فاشهد » ، وهذا الاستخدام المتكرر يدل على مـدى حرصه ﷺ على تبليغ رسالتـه ، كما يدل على مقدرته العظيمـة فى جلب الانتباه والتأثير على المستمعين ، وهـذه تعدّ من مـزايا الخطيب النـاجح ، كم نـلاحظ كذلك أن هـذه الخطبة على طولها لا تكلف فيها ولا تعقيد ، فألفاظهـا واضحة ومقاصدها بينة ، كما أنها كانت بمنأى عن استخـدام السجع المتكلف وغيره مـن المحسنـات البـديعيـة التى لا حـاجـة لها ،

فالهدف هنا هو إيصال فكرة محددة إلى الناس ، وقد قام الخطيب ﷺ بهذه المهمة باستخدام أسهل العبارات وأوضحها بأسلوب راق لا تكلف فيه ولا تقعر يهدف إلى تربية النفوس وربطها بخالقها وإدخال السعادة والطمأنينة إليها .

• • •

علي - رضى الله عنه - والتحكيم

قال الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بعد حادثة التحكيم : « الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجلل ، وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد : فإن معصية الناصح الشفيق ، العالم المجرب ، تورث الحيرة وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة [1] أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم علىّ إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين[2] العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن[3] الزند بقدحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن[4] .

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينو النصح إلاّ ضحى الغد

* * *

● **التعريف بالإمام علي :**

هو على بن أبى طالب ، ولد قبل هجرة الرسول ﷺ بإحدى وعشرين سنة ، وهو أول المسلمين من الصبيان ، إذ أسلم وهو فى السادسة من عمره ، ثم لازم الرسول طوال حياته ، وشارك معه فى غزواته وأبلى فيها بلاءً حسناً . وقد زوجه الرسول ﷺ ابنته فاطمة فولدت له الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . تولى خلافة المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، وفى زمنه وقعت حروب وفتن بين المسلمين . وقد قتله عبد الرحمن بن ملجم وهو يصلى فى مسجد الكوفة ، وقد بقى خليفة للمسلمين أربع سنوات وتسعة أشهر .

---

(١) الحكومة : التحكيم .

(٢) المنابذين : المخالفين .

(٣) ضنّ : نجل .

(٤) أخو هوازن : هو دريد بن الصمة وهو من شعراء الجاهلية الذين عمروا طويلاً واشتهر بالحكمة وكان قد نصح قومه فى إحدى المعارك فلم يستمعوا إليه فانهزموا .

● **تحليل النص :**

لمّا قتل عثمان بن عفان قام معاوية بن أبى سفيان يطالب بدمه ، وامتنع عن بيعة على ابن أبى طالب حتى يقوم على بقتل قتلة عثمان . ودارت بين الفريقين معارك طاحنة ، كان من بينها معركة صفين .

فى هذه المعركة كان النصر للإمام على بن أبى طالب ، وكاد جيش معاوية أن يُهزم لولا أن أشار عليهم عمرو بن العاص برفع المصاحف على الرماح والمطالبة بتحكيم القرآن . وهكذا امتنع معظم جيش على عن القتال قبولاً بمبدأ التحكيم ، وقد حاول الإمام على إقناعهم بمواصلة القتال لعلمه أن رفع المصاحف كان حيلة يراد منها كسر حدة انتصار جيش الإمام على، ولكنهم رفضوا قبول نصحه وأوقفوا القتال .

وجاءت نتيجة التحكيم فى غير صالح الإمام على ، ووقعت بعدها معارك وفتن لاتحصى .

وكانت تلك الخطبة بعد كل هذه الأحداث المؤلمة . وقد افتتحها بحمد الله والثناء عليه ، رغم كل المصائب الهائلة التى وقعت ، فحمد الله مطلوب فى السراء والضراء ،وهذه طبيعة المسلم يرضى بقضاء الله وقدره ، ولعل الإمام على – وهو من هو قرباً من الرسول ﷺ وملازمة له[1] – إنّ أمره كله له خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس هذا لأحد إلاّ لمسلم » .. ثم نرى الإمام على يذكر كلمة التوحيد : شهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هذه الشهادة التى تدل على مدى قرب الإنسان من ربه والتصاقه بعقيدته ودينه . وهذا الافتتاح بحمد الله والثناء عليه وعلى رسوله أصبح سمة من سمات الخطابة الإسلامية ، فكل خطيب يفتتح خطبته بذكر الله وحمده والصلاة على نبيه ﷺ .

ويلاحظ أن مقدمة الخطبة قصيرة جداً ولكنها كافية لتعطى الإيحاء الكامل بمدى الفاجعة التى يحس بها الإمام من الموقف الذى حصل لقومه .

وبعد هذه المقدمة الموجزة يتحدث الإمام على – رضى الله عنه – عن الهدف من خطبته ، فقد كان ناصحاً شفيقاً لقومه ، ومع النصح كانت التجربة والحنكة والمعرفة ، وإذا اجتمع النصح مع المعرفة كان حرياً لمن سمع هذه النصيحة أن يسارع بالاستجابة لها ، لكن قوم على لم يكونوا من هذا الصنف فوقعت عليهم الكارثة التى أورثتهم الحيرة وأوقعت بهم الندامة .

---

(١) أخذهذا المعنى من قوله ﷺ عجباً لأمر المؤمن.

ويستشهد الإمام على بما وقع له مع قومه بحادثة مشهورة ترويها كتب التاريخ حيث نصح « قصير » جذيمة الأبرش أن لا يذهب إلى الزباء ملكة تدمر فعصاه وكانت النتيجة أنها قتلته .

ويظهر الإمام على عمق الندم والأسى لما أصاب قومه ، ويفصح عن مكنونات قلبه الذى يتأجج غيظاً فيقول لهم : لقد شككت فيكم ، وعرفتم أنكم لا تستحقون حتى مجرد النصح ، وهنا يستشهد الإمام بحادثة أخرى مشابهة لسابقتها ، وهى حادثة دريد بن الصمة مع قومه حيث نصحهم فلم يستمعوا له فحاقت بهم الهزيمة .

عبارات الإمام فى خطبته كلها توحى بالحزن الشديد والألم المرير لما آلت إليه حالة أصحابه ، فهو يستخدم ألفاظًا مثل : الخطب الفادح ، الحدث الجلل ، الحيرة ، الندامة ، ارتاب الناصح – ضن الزند .. » ، وفى هذه العبارات الحزينة يستخدم صوراً بلاغية جميلة مثل قوله: « نخلت لكم مخزون رأيى » . فهذه الاستعارة التمثيلية تدل على مدى حرص الإمام على تقديم أفضل ما يمكن تقديمه لقومه ، فهو يقدم لهم عصارة ذهنه علهم يستفيدون منها وهذا شأن الناصح الأمين .

ويستخدم الإمام على فى هذه الخطبة بعض الأحداث التاريخية كى يؤكد صحة ما ذهب إليه ، وتدعيم موقفه بالإشارة إلى أحداث تاريخية مشابهة أعطت النتائج نفسها ، ووقعت لذات الأسباب التى تحدث عنها . وقد أشار إلى حادثة قصير مع جذيمة ، كما أشار إلى حادثة دريد بن الصمة مع قومه . وهذه الإشارات لها تأثير قوى فى نفوس سامعيها . وهى تدل كذلك على مدى تمكن الخطيب من ناصية البلاغة ومعرفته بأحوال المخاطبين واستخدامه للوسائل المؤثرة على نفوس مستمعيه .

● ● ●

زياد بن أبيه يتوعد أهل البصرة

عندما ولّى معاوية بن أبى سفيان زياداً على البصرة سنة ٤٥هـ ألقى زياد خطبة الإمارة ، على عادة الأمراد آنذاك . وقد سميت هذه الخطبة بـ « البتراء » لأنه لم يبدأها بحمد الله ، وكان ممّا جاء فى هذه الخطبة قوله(١) :

اقتران بالضياء

« أيّها النّاس ! إنّا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة(٢) : نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفيء(٣) الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السّمع والطاعة فى ما أحببنا ، ولكم علينا العدل فى ما ولّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنّني مهما قصّرت عنه فلن أُقَصِّرَ عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبّانه(٤) ولا مجمراً(٥) لكم بعثاً(٦) فادعوا الله بالصلاح لأئمكم ، فإنّهم ساستكم المؤدّبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يَصْلَحوا تصْلَحُوا ولا تَشْربوا قلوبَكم بغضَهم فيشتدّ لذلك غيظكم ويطولَ له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرّا لكم أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله وأيم الله إنّ لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كلّ امرىء منكم أن يكون من صرعاى !

● **التعريف بالخطيب :**

هو زياد بن أبى أبيه ، ولد فى الطائف فى السنة الأولى من الهجرة ، وقد اختلف فى اسم أبيه فقيل هو « أبو سفيان » وقيل « عبيد الثقفى » وأمه أسماء كانت جارية لـ « الحارث بن كلدة الثقفى »، وقد ألحقه معاوية بنسبه وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق . وقد استمر والياً لمعاوية حتى توفى سنة ٥٣هـ .

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٩١ . (٢) ذادة : أى مدافعين عنكم .

(٣) الفىء : مال الخراج والفتح .

(٤) أبّانه : وقته .

(٥) مجمرا : حابساً فى أرض العدو .

(٦) بعثا : جيشا .

وقد عـرف عنه الـدهاء ، قـال الأصمعى : الدهـاة أربعـة : معاويـة للروية ، وعمـرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلة ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

وق عرف عن زياد قـدرته الفائقة على الخطابـة س فقد صبغ زياد جزءًا هـاماً من تاريخ المجتمع الإسـلامى بصبغتـه الخاصة ، كما فعـل الحجاج بن يـوسف بعـده بقليل . وقـد شكل الرجلان ثنائياً قل نظيره فى السياسة والأدب وتدبير الأمور ؛ وإن كان هناك من فضل لزياد على من لحقوه ، فهو فضل الريادة والتأسيس والبناء »[١].

● شرح الخطبة :

« أيها الناس » النداء فى معرض التهديد ، والمفاخرة على المخاطب يتضمن معنى التحقير أو التصغير .

وتوجيه النداء للناس بعامة يكشف عن أن المخاطبين – وهم بعض من الناس – لا شأن لهم عند المتكلم .

فزياد يخطب فى أهل البصرة ، لكنه لا يخصص الخطـاب لهم بل يعممه إلى الناس جميعاً .

« إنّا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة » إن + نـا المتكلمين تدل على الدخول فى الجماعة الحاكمة ، فـزياد واحد مـن الحكام الذين ولاّهم الخليفـة ، وهو يدخـل نفسه فى زمرة السـاسة الذين يسـوسون الناس ، وقولـه : « أصبحنا » يدل على حدوث الفعل فى الصبـاح الذى يقترن بالضياء والحركة والنشـاط والإقبال على الحياة ، « لكم ساسة » يشير إلى أن كـونهم ساسة تفيد نوعاً من الالتحام بين الساسة والمسوسين ، فهم لهم ساسة وليسوا عليهم .

« وعنكم ذادة » اقتران سياستـه للرعية بـالدفـاع عنهم ، وقوله : « نسـوسكم بسلطان الله الذى أعطـانا » تبيين لطبيعة السياسـة والحكم ، وتفصيل بعد إجمال فى قولـه : « أصبحنا لكم ساسـة » فهم يسوسـون الرعية بسلطـان الله ، وهذا يعنى أن الحكم يقـوم على شرع الله ، ومادام كذلك فإن طاعة الرعية للحكام واجبة .

---

(١) زياد بـن أبيه ، على نعيم جفّـال ، دار الكتب العلية – بيروت – ص ١٦٤ ، وانظـر ترجمة زيـاد فى : ميزان الاعتدال ١/ ٣٥٥ ، تهذيب بن عساكر ٤/ ٤٠٦ ، والإعلام ٣/ ٥٣ .

وهذا الحكم ليس إلاّ عطاءً من الله منحه لهم وليس لأحد من الرعية يد فيه ، وما عليهم إلاّ طاعة هؤلاء الحكام الذين اختارهم الله لحكمهم .

وقوله : « نذود عنكم بفيء الله الذى أعطانا» يعنى أنه أدخل نفسه عن طريق « النون » إلى نفس الجماعة التى أدخلته فيها ، والنون هنا تمثل قناعاً تحتوى الأمويين ومن نسب إليهم ليصبحوا جماعة واحدة وطبقة حاكمة عليا .

والذود عن المسلمين هو بفيء الله الذى خول بنى أمية ومن ولّوه حكم المسلمين ، وهذا تفصيل وتبيين بعد الإجمال فى قوله : « عنكم ذادة » .

وقوله : « فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا » نلاحظ فيه أنه قدم الجار والمجرور « لنا » وهذا التقديم يفيد التوكيد ، و « على » تفيد الاستعلاء ، وتعريف المسند إليه والمعطوف عليه : « السمع والطاعة » يفيد الاستغراق ؛ فإن لهم كل السمع وكل الطاعة .

لكن السمع والطاعة هنا ليس فيما تحب الرعية ، ولكن فيما يحب الحكام ، أو فيما يجب أن يكون .

وقوله : « ولكم علينا العدل فيما ولينا » نلاحظ أن بين هذه الجملة والجملة السابقة نوع من التناظر التركيبى ، يبدو كما يلى :

لنا	لكم
عليكم	علينا
السمع والطاعة	والعدل
أحببنا	ولينا

هذا التناظر التركيبى هو معادل لما يمكن أن نسميه المماثلة فى الموقف ، فإذا وقف المحكومون من الحكام الموقف الذى يريده هؤلاء الحكام كان الجزاء من جنس العمل .

وقوله : « فاستوجبوا عدلنا بمناصحتكم لنا » يتبع زياد نوعاً من الأسلوب التوليدى ، حيث تسير الجمل فى حلقات متداخلة يتولد بعضها من بعض مثل « ساسة – ذادة – نسوسكم – نذود – عنكم – لنا عليكم السمع – لكم علينا العدل – فاستوجبوا عدلنا.. إلخ » وقوله : بمناصحتكم لنا يبين الكيفية التى يستوجبون بها عدلهم . وهى لا تتجاوز المناصحة ، ولا شىء بعد ذلك .

والمناصحة مفاعلة ، فهى لا ترقى إلى النصح الكامل من طرف واحد ، بل هى اشتراك للطرفين فى الفعل .

وقوله بعد ذلك : « واعلموا أنى مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً » يكشف ذلك عن مسئولية الحاكم - فى التصور الأموى - نحو المحكومين ، فالحاكم مسئول عن قضاء حاجات الرعية فى كل وقت ، والحاجة لفظ يشمل كل ما يحتاجه الإنسان ، لكنها تستعمل مقترنة فى الأعم الأغلب بحاجات المعوزين والمظلومين ، أمّا حبس العطاء والرزق فقد كان فيما يبدو نهجاً من بعض الحكام لتطويع شعوبهم .

كما يبدو أن حبس الجيوش فى أرض العدو كان مشكلة يعانى منها المسلمون فى ذلك الوقت ، حيث كانت الانطلاقة الكبرى للفتح الإسلامى شرقاً وغرباً . ولهذا نجد أن زياداً وعدهم - فيما وعد - أن لا يفعل هذا معهم . ويلفت النظر أنه اكتفى بالمهام الثلاث ، وقرر أنه مهما قصر فلن يقصر عنها ، وهو بهذا يكون قد قصر فى كثير من مهام الحاكم نحو الرعية .

وقوله : « فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا » يعود زياد مرة أخرى ليؤكد مفهوم الولاء للحكام فيسميهم بـ« الأئمة » ومفهوم « الإمام » فى الفقه الإسلامى أنه الحاكم الذى يجب أن يطاع - فى غير معصية الله - لأنه الشخص الذى أجمعت الأمة على اختياره ومن ثم أصبح له حق الطاعة عليها .

ويؤكد زياد مكانة « الإمام » عند الرعية ، فهو الذى يقوم بإدارة شئونهم ، وهو الذى يتولى تأديبهم وتوجيههم ، وهو الذى يمدهم بالحماية والأمن والاستقرار ، فصلاح الرعية مرتبط بصلاح إمامهم ، ولذا كان لزاماً عليهم أن يدعوا الله باستمرار ليصلح لهم أئمتهم ، لأن فى صلاحهم صلاح رعيتهم وأمنهم وراحتهم .

ويحذر زياد من بغض الحكام فيقول : « ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حاجتكم » . فالرعية هم الخاسرون - وحدهم - إذا أبغضوا حكّامهم ، فالغيظ والحزن سيلازمهم ماداموا لحكامهم مبغضين ، وحكّامهم لن يصيبهم شيئاً ولن يتأثروا مطلقاً بهذا الغيظ ، ومادام الأمر هكذا فلماذا تبغض الرعية حكّامها ؟!

ولا يكتفى زياد بهذا التحذير من بغض الولاة ، بل يوغل فيه ويحلو له أن يؤكده بطريقة أخرى فيقول : « مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم » فهو يؤكد أن الحكام الموجودين هم أفضل من غيرهم بكثير ، ولن يتأتى أفضل منهم ، وبالتالى لابدّ من التمسك بهم ، والقناعة بما يفعلون ، والرضى بكل ما يقومون به .

ويقول بعد ذلك : « أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ » فى هذه الجملة حذفٌ بعد « كلا » وحذف آخر بعد « كلّ » ، فهو يدعو الله أن يعين الحكام على تحمل المحكومين ، كما يسأله فى الوقت نفسه أن يعين المحكومين على حكّامهم .

ويلجأ فى نهاية الخطبة إلى التهديد والوعيد ، فيقول مخاطباً أهل البصرة : « وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله ، وأيم الله إنّ لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء أن يكون من صرعاى » .

فهو يريد منهم فى نهاية المطاف أن ينفذوا كل أوامره مهما كانت دون مماطلة أو تأخير ، ثم يقسم بالله ، ويؤكد قسمه أنه سيقتل منهم كثيرين – طالما أنهم بقوا على عصيانهم – ومادام الأمر هكذا فعلى كل واحد منهم أن ينقذ نفسه من الموت ، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بالطاعة التامة والالتزام بكل أوامر الحاكم .

هذه الخطبة تدل على مكانة زياد ابن أبيه فى مضمار الخطابة فى العصر الأموى ، وهى مكانة أجمع النقاد على علوها وتميزها « وبالإجمال فإن خطبة زياد ذات قيمة مزدوجة فنية وتاريخية ، أمّا جمالها الفنى فيبدو فى ظاهرة الإفصاح وبلاغة الإيضاح وقوة المنطق وبعد الإشارة وروعة التأثير ، وأمّا القيمة التاريخية فهى صورة عصر ومرآة بيئة وعنوان لسياسة بنى أمية فى العراق »[1] .

● ● ●

---

(١) مواقف فى الأدب الأموى ، د/ عمر فاروق الطباع ، دار القلم ، بيروت ، ص ٢٦٥ ، ط ١ ، ١٤١١هـ .

غراس المجد

للمقنع الكندي

١ - يُعاتبني في الدَّيْن قومي وإنما دُيُوني في أشياء تكسبهم حَمْدا

٢ - أَسُدُّ به ما قد أخَلُّوا وضيَّعوا ثُغورَ حقوقٍ ما أطاقوا لها سَدا

٣ - وفي جَفْنَةٍ[1] ما يغلَق البابُ دونها مكللةٍ لحماً مدفقة[2] ثردا[3]

٤ - وفي فرسٍ نهدٍ[4] عتيقٍ[5] جعلتُه حجاباً لبيتي ثم أخدَمْتُه عَبْدا

٥ - وإنَّ الذي بيني وبين بني أبي وبينَ بني عمي لمختلفٌ جِدَّاً

٦ - فإن يأكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومَهم وإن هدمُوا مجدي بنيت لهم مجداً

٧ - وإن ضيّعوا غيبي حفظْتُ غيوبهم وإن هووا غَيِّي هَوَيْت لهم رشدا

٨ - وإن زَجَروا طيري بنحسٍ تمر بي زجَرتُ لهم طيراً تمرُّ بهم سعدا

٩ - ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهم وليس رئيسُ القومِ من يحمل الحقدا

١٠ - لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنىً وإن قلَّ مالي لم أكلِّفْهم رفدا[6]

١١ - وإني لعبْد للضيفِ ما دام نازلاً وما شيمةٌ لي غيرُها تشبهُ العبدا

---

(١) الجفنة : وعاء كبير يطبخ فيه .

(٢) مدفقة : أي مملوءة .

(٣) الثرد : الخبز .

(٤) نهد : أي عال .

(٥) عتيق : أصيل .

(٦) الرفد : العطاء .

● **ترجمة الشاعر :**

هو محمدبن ظفر بن عمير الكندي ولقبه المقنع لأنه كان دائماً مقنعاً ، كان شريفاً مسوداً في قومه ويمتاز شعره بالفخر والحكمة وهو من المقلين . وتوفى سنة ٧٠هـ .

● **شرح القصيدة :**

يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن كثرة إنفاقه المال حتى يضطر إلى استدانة المال حين ينضب ما لديه ويتعرض من أجل ذلك إلى لوم قومه ومعاتبتهم ، ولكنه يوضح لهم أن هذه الأموال تنفق فيما يعود على القبيلة كلها بالحمد وتورث المجد والسؤدد ومن ذلك سدّه للحقوق التي يعجزون عن سدها . ومن ذلك أيضاً كرمه وضيافته حيثلا يجد الضيف أو الفقير بابه موصداً ولكنه يجد اللحم والثريد معداً له .

ومن ذلك إنفاقه المال على فرسه الأصيل المعد للدفاع عنه وعن عشيرته ولذلك جعل له عبداً يتعهده.

ثم يتحدث المقنع عن الخلاف بينه وبين إخوانه وأبناء عمه ، فهو يقول عنهم إنهم إن اغتابوني لم أفعل مثلهم بل صنت أعراضهم ، وإن حاولوا هدم مجدي بنيت لهم مجداً وهكذا شأني معهم فى كثير من الأمور ، ويبين لنا أنه مع ذلك لا يحمل عليهم حقداً ويعلل ذلك بأنه سيدهم ورئيسهم وليس من صفات السيد والرئيس أن يحقد على قومه وإخوانه وأقاربه .

ثم يعود ويؤكد أنه قد سخر ماله لهم مادام غنياً وإذا أصابه الفقر لم يكلفهم ويطلب منهم شيئاً ، ثم يتحدث عن اعتزازه بإكرام الضيف حيث يجعل من نفسه عبداً للضيف مادام نازلاً عنده .

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني والأخلاق السامية بلغة جميلة واضحة تتخللها الصور البيانية الرائعة مثل ما نجده في البيت الثاني ، حيث جعل للحقوق ثغوراً ينبغي أن تسد بالكرم والبذل . وهناك الكناية الجميلة في البيت الثالث حيث كنى بالجفنة والباب المفتوح عن كرمه الدائم ، كما نلحظ الكناية عن الغيبة في قوله : فإن يأكلوا الحمي وفرت لحومهم ...

وهي مأخوذة من البيان القرآني في قوله تعالى : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا..** ﴾ .

وقد أحسن الشاعر المقابلة بين موقفه والموقف المتناقض لإخوانه وأبناء عمه كما نجده في قوله :

فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

حيث نجد التقابل ما بين يأكلوا ووفرت، وبين هدموا وبين بنيت .

● ● ●

لولا الحياء

لجرير في رثاء زوجته

١ - لـولا الحيــاء لعــادني استعبــار[١] ولــــزرت قبرك والحبيب يـــزارُ

٢ - ولقـد نظـرت ومـا تمتـع نظـرة في اللحـــد حيث تمكـن المحفـــار

٣ - فجـزاك ربك في عشـيرك نظـرة وسقى صـداك[٢] مجلجلٌ مـدرار[٣]

٤ - ولهـت قلبـي إذ علتـني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغـــار

٥- أرعى النجـوم وقد مـضت غورية[٤] عصبُ النجــوم كـأنهن صــوار[٥]

٦ -نعم القـرين وكنت علق مضنـه[٦] وارى بنعـفِ[٧] بُلَيَّـــة[٨] الأحجـارُ

٧ - عمـرت مكـرمـة المسـاك[٩] وفـارقت مـــا مسهـا صلفٌ ولا إقتـارُ[١٠]

٨ - كـانت مكـرمـة العشير ولم يكن يخشـى غـــوائل أم محرزة جـــارُ

٩ - ولقــد أراك كسيت أجمــل منظـرٍ ومـع الجمال سكينــــة ووقـــار

١٠ - صـلى الملائكـة الـذين تخـيروا والصـــالحون عليـك والأبـــرار

١١ - وعلـيك مـن صلـوات ربك كلما نصب الحجيجُ ملبّـدين[١١] وغـاروا[١٢]

---

(١) استعبار : بكاء وحزن .
(٢) صداك : أي جثمانك .
(٣) جلجل مدرار : أي السحاب الغزير بالماء .
(٤) غورية : تتجه جهة الغور .
(٥) الصوار : القطيع من بقر الوحش .
(٦) علق مضنة : الشيء النفيس الذى يضن به .
(٧) نعف : أسفل الجبل .
(٨) بلية : اسم بلدة .
(٩) المساك : أي إمساك زوجها لها .
(١٠) اقتار : بخل .
(١١) ملبدين : التلبيد أن يجعل المحرم في رأسه صمغاً يتلبد شعره . (١٢) غاروا : أي جاءوا الغور .

● **ترجمة الشاعر :**

هو جرير بن عطية من قبيلة كليب التميمية من فحول الشعراء الأمويين وتنوعت أغراضه بين المدح والهجاء ، والغزل والوصف والرثاء والفخر ، اشتهر بشعرالنقائض مع الفرزدق ومع الأخطل ، وقد مدح عدداً من الولاة والخلفاء مثل عبد الملك بن مروان والوليد ابن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، والحجاج بن يوسف وتوفى سنة ١١٤ هـ .

● **شرح القصيدة :**

. قال جرير هذه القصيدة فى رثاء زوجته أم حرزة وتمتاز أبياتها بالرقة والعذوبة ويتجلى ذلك من مطلع القصيدة حيث يقول:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

مطلع يذكرنا بشعر الغزل العذري ولاشك أن جريراً يتفوق في هذا اللون من الشعر والقصيدة طويلة جداً وقد جعل أولها فى رثاء زوجته ولكنه جعل بقيتها في هجاء خصمه اللدود الفرزدق .

وجرير ذو نفس صافية مخلص لزوجته وَفِي لها ، ولذلك نجد شعور الحزن مخيماً على جميع أبيات القصيدة ، ولذلك يكثر من الدعاء لزوجته بالرحمة من الله والدعاء من الملائكة والصالحين والأبرار في الأبيات الثالث والعاشر والحادي عشر .

ومما يزيد في حزن الشاعر مفارقته لها وهو في الكبر وأبناؤها صغارٌ وقد فقدوا بموتها حنان الأم وهذا ما نجده واضحاً في قوله :

ولهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغارُ

ثم أخذ يعدد خصالها الكريمة ، فهي نعم الزوجة وهي من أنفس ما يضن به زوجها .

ثم تحدث عن حياتها معه فهي قد عاشت مكرمة معززة وفارقت هذه الدنيا ولم يكدر خاطرها صلف الزوج وبغضه لها ولم يبخل عليها بشيء ، ثم يرجع مرة أخرى إلى ذكر صفاتها ومنها إكرامها لعشيرها وجيرانها .

ثم أخذ يعدد صفاتها ومن ذلك جمالها المزين بالسكينة والوقار ، فهو جمال غير مبتذل ، ومن الصور البلاغية التي استخدمها جرير في هذه الأبيات التشبيه الذي نجده في البيت الخامس ، حيث شبه النجوم بقطيع من بقر الوحش . والكناية في البيت الثامن في قوله :

ولم يكن يخشى غوائل أم حرزة جارُ

● ● ●

في الفخر والشجاعة

لسعد بن ناشب

١ - سأغسِلُ عني العار بالسيف جالبا ... على قضاء الله ما كان جالبا

٢ - وأذهَلُ[1] عن داري وأجعلُ هدمها ... لعرضي من باقي المذمة حاجبا

٣ - ويصغر في عيني تلادي[2] إذا انثنت ... يميني بإدراك الذي كنت طالبا

٤ - فإن تهدموا بالغدر داري فإنها ... تراث كريم لا يخاف العواقبا

٥ - أخي عزماتٍ لا يريد على الذي ... يهُم به من مفظع الأمر صاحبا

٦ - إذا هم لم تردع عزيمة أمره ... ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا

٧ - فيا لرزام رشحوا بي مقدماً ... إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا

٨ - إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

٩ - ولم يستشر في رأيه أمر غيره ... ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

١٠ - فلا توعدوني بالأمير فإن لي ... جناناً لأكناف[3] المخاوف راكبا

١١ - وقلباً أبياً لا يُرَوَّعُ جاشه ... إذا الشرُّ أبدى بالنهار الكواكبا

---

(١) أذهل أي : أغفل .

(٢) التلاد : المال القديم .

(٣) أكناف جمع كنف : وهو جانب الشيء .

● **ترجمة الشاعر :**

هو سعد بن ناشب من بني العنبر من شعراء صدر الإسلام وأدرك الدولة الأموية وكان من شجعان بني تميم وهو من الشعراء المقلين .

● **شرح القصيدة :**

هذه القصيدة لها سبب مباشر حيث أصاب الشاعر دماً فهدم والي البصرة داره وحرّقها فقال الشاعر هذه القصيدة رداً على تصرف الوالي ونلمس فيها إصراره وتحديه منذ مطلع القصيدة ، فهو يقول بأنه سيستمر في غسل العار عنه بسيفه مهما تكن النتائج حتى لو كانت هدم داره.

ثم يوجه خطابه إلى والي البصرة الذي هدم داره معلناً رفضه هذا التصرف الذي يصفه بالغدر ، وهذه الدار تراث كريم لشخص لا يخاف العواقب . ثم يسترسل في وصف نفسه بأوصاف عديدة ، فهو صاحب عزم وإقدام يقبل ولا يخاف من الموت وهو لا يستشير أحداً إذا اتخذ رأيه وقراره ، ولم يتخذ له صاحباً غير السيف يخوض به المعارك ويقارع به الكتائب . ويوجه خطابه بعد ذلك إلى الذين يخوفونه بالأمير ويعلن بكل صراحة أنه غير خائف وأن له قلباً أبياً رابط الجأش مهما كشر الشر عن أنيابه .

وقد استخدم الشاعر عدداً من الأساليب البلاغية مثل الاستعارة مثل قوله : «سأغسل عني العار بالسيف » . وقوله: « إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه » .

ونجد بعض الكنايات مثل قوله : « إذا انثنت يميني كناية عن الضعف » . وقوله: «أخي عزمات» وهو كناية عن اقترانه بجلائل الأعمال .

● ● ●

(١) موسوعة شعراء العرب ، د. يحيى شامي ١/ ٢٤٦ .



نصوص مختارة غير محلّلة

مدح مصعب بن الزبير لعبيد الله بن قيس الرُّقيّات(*)

أقْفَرَتْ بعْدَ عَبْدِ شمسٍ كَداءُ ... فكُدَيٌّ فالرُّكْنُ فالبَطْحاءُ(١)

فَمِنىً فالجمارُ من عَبْدِ شَمْسٍ ... مُقْفِراتٌ فَبَلْدَحٌ فحِراءُ(٢)

(*) هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة بن أهيب بن عامر بن لؤي ولُقّب بالرُّقيات لتشبيبه بثلاث نسوة كل واحدة منهن تدعى رقيّة . ولد شاعرنا في مكة في حدود العقد الثالث للهجرة ، وبها عاش صباه وشبابه ثم رحل إلى المدينة وبها أقام . ولعذرية شعره وصفاء ألفاظه وجمال موسيقاه وحلاوة نغمه وخفة أوزانه ، فقد اتخذه المغنون مادة لغنائهم وبخاصة أن ابن الرقيات يُعَدّ في طليعة شعراء الغزل ولكنه شغل بالسياسة وعرف بزبيريته فلازم مصعباً يمدحه حتى قتل ، فهرب إلى الكوفة ، وظل متخفياً مترقباً ينتقل من مكان لآخر حتى اتصل بعبد العزيز بن مروان الذي شفع له عند عبد الملك فمدحه بقصيدته البائية ، التي يقول فيها :

ما نَقَموا من بني أميّة إلـ ... ـلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم مَعْدِن الملوك فلا ... تصلُحُ إلا عليهم العربُ

وأنهم الفنيق الذي أبوه أبو الـ ... ـعاصي عليه الوقار والحُجُبُ

يعتدل التاج فوق مَفْرِقه ... على جبينٍ كأنه الذّهبُ

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم ، وتقول في مصعب :

إنّما مصعب شهاب من الله ... تجلّت عن وجهه الظلماء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن الله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً .

يكاد عبيد الله بن الرقيات يكون شاعر الزبيريين الوحيد الذي وقف شعره عليهم ، ولكنا نلمح أن هذا التعصب كان لقريش ، فانقسام قريش يقض مضجعه ويحزّ في نفسه ، وهو يرى في ابن الزبير الأمل في إعادة اللحمة وجمع الشمل ورأب الصدع ، ومن هذا المنطلق كانت مدائحه بل شعره السياسي .

(١) كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدي : جبل قريب منه . الركن : ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة .

(٢) بلدح : واد في طريق التنعيم إلى مكة .

مُـوحِشَـاتٌ إلى تَعـاهِنَ فالسقـــ … ـــا قِفَـارٌ مـن عَبْـدِ شَمْسٍ خَـلاءُ(١)

قـــد أراهُـمْ وفي المواسمِ إذ يغـــ … ـــدون حِلْمٌ ونـــائِلٌ وبَهاءُ

حَبَّـــذا العَيْشُ حينَ قَـــوْمي جَميعٌ … لم تُفَـــرِّق أُمـــورَهـــا الأهـــواءُ

قَبْـلَ أنْ تَطْمَـعَ القبـــائِلُ في مُلْـك … قُـــرَيشٍ وتشْمَـتَ الأعـــداءُ(٢)

أيُّها المشتهـي فَنــــاءَ قُـــرَيشٍ … بَيَـــدِ اللهِ عُمْـــرُهــا والفَنـــاءُ

إن تـــوَدَّع من البـــلادِ قُـــرَيشٌ … لا يكـن بَعْـــدَهُـمْ لِحَيٍّ بقـــاءُ(٣)

لَـــوْ بَكَتْ هـــذه السَّماءُ على قـــوْ … مٍ كِـــرامٍ بَكَتْ علينـــا السماءُ

نحـن مِنَّـــا النبيُّ الأمِّـيُّ والصِّدّيـــ … ـــقُ مِنّـــا التَّقِـيُّ والخُلفـــاءُ

وقَتيـلُ الأحْـــزابِ حَمْزَةُ مِنّـــا … أسَـــدُ اللهِ والسَّنـــاءُ سنـــاءُ(٤)

وعليٌّ وجَعْفَـــرٌ ذو الجناحَـــ … ـــيْنِ هُنـــاكَ الـــوَصيُّ والشُّهـــداءُ

والـزُّبَيْرُ الـذي أجـابَ رسـولَ اللـ … ـــه في الكَـــرْبِ والبَـــلاءُ بـــلاءُ

والّـــذي نَغَّصَ ابنَ دَوْمـــةَ مـــا تـــو … حي الشيـــاطينُ والسُّيـــوفُ ظِماءُ(٥)

فأبـــاحَ العِـــراقَ يضرِبُهم بالسّـــ … ـــيفِ صَلْتـــاً وفي الضِّرابِ غِـــلاءُ(٦)

فَسَعَـــوْا كيْ يُغَلِّلُـــوكَ ويـأبي اللهُ … إلا الـــذي يـــرى ويشـــاءُ(٧)

حســـداً إذْ رَأَوْكَ فَضَّلَـكَ اللـــ … ـــهُ بما فُضِّلَتْ بـــهِ النُّجبـــاءُ

إنْ تعِـشْ لا نَـــزَلْ بِخَيْرٍ وإنْ تهلِـكْ … نَـــزَلْ مِثْلَ مـــا يَـــزولُ العَماءُ(٨)

إنَّما مُصْعـبٌ شهـــابٌ مـن اللهِ … تجلَّـتْ عَـنْ وَجْهِـــهِ الظَّلْماءُ

مُلْكُـــهُ مُلْـكُ قُـــوَّةٍ فيـــهِ … جَبَروتٌ ولا بِـــهِ كِبْرِيـــاءُ

---

(١) تَعاهن : عين ماء .

(٢) تشمت : تطمع لما أصابها من الشر .

(٣) تودّع : تفنى وتهلك .

(٤) الأحزاب : ليسوا أصحاب الخندق وهي تعني هنا الجماعات المتحزّبة ضد الإسلام .

(٥) نغّص : قتل . ابن دومة : المختار بن أبي عبيد الثقفي . وقوله : ما توحي الشياطين : إشارة إلى ما كان يدعيه المختار .

(٦) الضراب غلاء : الضرب غالٍ لا يقدر عليه كل إنسان .

(٧) يغلّلوك : يضعفوك ويكسروا شوكتك .

(٨) العُماء : السحاب .

يتّقي الله في الأُمـورِ وقـدْ أَفْـد ... حَ من كـانَ همَّهُ الإتّقـاءُ

إن لِلّـهِ دَرَّ قَـوْمٍ يـريـدو ... نَكَ بـالنَّقْـصِ والشَّقـاءُ شَقـاءُ

بَعْـدَمـا أَحْـرَزَ الإِلَـهُ بكَ الرَّتْـ ... ـقَ[1] وهَـرَّت كـلابَكَ الأعـداءُ

عَيْنُ فـابكي على قُـرَيْشٍ وَهَلْ يُـرْ ... جِعُ مـا فـاتَ - إن بَكَيْتُ - البكـاءُ

لَيْسَ لله حُـرْمَـةٌ مِثْلُ بَيْتٍ ... نَحْنُ حُجّـابُـهُ عليـهِ المُلاءُ

خَصَّـهُ الله بـالكـرامَـةِ فـالبا ... دُونَ والعـاكفـون فيـه سـواء[2]

فَبَنَيْنَـاهُ مِنْ بَعْـدِ مـا حَـرَّقـوهُ ... فـاستـوى السَّمكُ وا ستقلَّ البنـاءُ[3]

كَيْـفَ نَـوْمـي على الفِـراشِ ولمّا ... يَشْمَل الشّـامَ غـارةٌ شعـواءُ[4]

تُـذْهِـلُ الشَّيْخَ عـن بَنيـهِ وتُبْـدي ... عن بُـراهـا العَقيلَـةُ العـذراءُ[5]

أنـا عَنكُـم بني أمَيَّـةُ مُـزوَرٌّ ... وأنْتُـمْ في نفسيَ الأعـداءُ[6]

إنَّ قَتْلى بـالطَّفِّ قَـدْ أَوْجَعَتْني ... كـانَ مِنكـم لَئِنْ قُتِلْتُمْ شِفـاءُ[7]

● ● ●

(١) أحرز الرتق: رأب الصدع ولمَّ الشمل .
(٢) البادون : من هم خارج البيت الحرام . العاكفون : المقيمون في المسجد .
(٣) السَّمك : السقف .
(٤) الشعواء : المتفرقة . مأخوذة من أشعى القوم أي أشعلوها وفرّقوها .
(٥) تذهل : تشغل وتصرف . البرى : جمع برة : الخلخال والسوار . العقيلة : الكريمة من النساء .
(٦) مُزْوَرٌّ : مائل منصرف .
(٧) الطف : موضع قرب الكوفة قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما وكثير من بني هاشم سنة ٦١هـ .

« قصيدة في مدح عبد الملك بن مروان »

لجرير(*)

تعزت أم حَزْرَةَ ثُمَّ قالت ... رَأَيْتُ الواردين ذوي لِقاحِ(1)

تُعَلِّلُ وَهْيَ ساغِبَةٌ بنيها ... بأنفاسٍ من الشَّبِمِ القَراحِ(2)

سأمتاحُ البحورُ فجنّبيني ... أذاةَ اللوم وانتظري امتياحي(3)

ثِقي بالله لَيْسَ له شريكٌ ... وَمِنْ عند الخليفة بالنجاحِ

أغثني يا فداك أبي وأمّي ... بِسَيْبٍ مِنْك إنّك ذو ارتياحِ(4)

فإني قد رأيتُ عليَّ حَقّاً ... زيارتيَ الخليفةَ وامتداحي

سأشكُرُ إن رَدَدْتَ عليَّ ريشي ... وأنبَتَّ القوادمَ في جناحي(5)

أَلَسْتُم خَيْرَ من رَكِبَ المطايا ... وأندى العالمين بطونَ راحِ(6)

وقومٍ قد سموتَ لهم فدانوا ... بِدَهْمٍ في مُلَمْلَمَةٍ رَداحِ(7)

أَبَحْتَ حِمى تِهامةَ بعد نجدٍ ... وما شيءٌ حَمَيْتَ بمُسْتَباحِ(8)

(*) هو جرير بن عطية الخطفى من كليب بن يربوع أحد بطون تميم يكنى أبا حرزة . نشأ نشأة متواضعة ولكن في بيت شعر ، ولد في بادية اليمامة سنة ثلاثين للهجرة وتوفي في حدود سنة ١١٤ هـ ، كان شاعراً مقدماً وقد اتصل الهجاء بينه وبين الفرزدق والأخطل والراعي النميرى فيما عُرف بالنقائض . شعره كثير ويمتاز بالعذوبة والسيرورة وأكثره في المدح والنقائض . مدح عبد الملك بن مروان فقربه إعجاباً بشعره .

(١) أم حرزة : زوجة جرير . الواردين : الذين يردون الماء . اللقاح : جمع لقوح : الإبل .

(٢) ساغبة : جائعة . أنفاس : جرعات . الشبم : البارد . القَراح : الخالص من الشوائب .

(٣) امتاح : اغترف .

(٤) السيب : العطاء : الارتياح : الاهتزاز للعطاء .

(٥) القوادم : الريشات في مقدم جناح الطائر .

(٦) المطايا : جمع مطية ، كل ما يمتطى من الحيوان كالإبل والجياد . الراح : جمع راحة وهي باطن الكف .

(٧) دانوا : أطاعوا . الدهم : الجيش الكبير . ململمة : مجتمعة . رداح : ضخمة .

(٨) يريد عبد الله بن الزبير .

دعـــوتَ المُلْحـــدين أبـــا خبيبٍ ... جماحـــاً هـل شفيـتَ مـن الجماح[1]

فقـــد وجـــدوا الخليفـــة هبرزيـــاً ... ألـفَّ العيصِ ليـسَ مـن النـــواحي[2]

فما شجـــراتُ عيصِكَ في قـــريش ... بعشَّـــات الفـــروع ولا ضـــواحي[3]

رأى النـــاسُ البصيرةَ فـــاستقـــامـــوا ... وبيَّنْت المِراضَ من الصِّحـــاحِ

● ● ●

(١) أبو خبيب عبد الله بن الزبير. الجماح: العناد والخلاف.

(٢) هبرزياً: ماضياً في الأمور صائب الرأي. ألَفَّ: ملتف. العيص: الشجر.

(٣) عشة الفروع: دقيقة الأغصان. الضاحية: بادية العيدان ولا ورق فيها.

كثير بن عبد الرحمن(*)
« في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز »

وليتَ فلم تشتُمْ عَليّاً ولم تُخِف بَرِيّاً ولم تَقْبَلْ إشارة مُجرمِ
وأظْهَرتَ نورَ الحَقّ فاشتدّ نورُهُ على كل لَبْس بارقِ الحق مظلمِ
وصدّقتَ بالفِعل المقالَ مع الذي أتيت فأمسى راضياً كلُّ مُسلمِ
تكلَّمتَ بالحقِّ المبينِ وإنَّما تبينُ آياتُ الهُدى بالتكلُّمِ
وقد لبستَ لُبْسَ الهُلُوكِ ثيابها تراءَى لك الدُّنيا بكفٍّ ومعصم(1)
وتومِضُ أحياناً بعين مريضةٍ وتَبْسِمُ عن مثلِ الجمانِ المنظَّمِ
فأعْرَضْتَ عنها مشمئزاً كأنَّما سَقَتْكَ مَدُوفاً مِنْ سِمامٍ وعلقمِ
تركتَ الذي يفنى وإنْ كان مونقاً وآثرتَ ما يبقى برأيٍ مصمَّمِ
وأضرَرتَ بالفاني وشَمَّرْتَ للذي أمامك في يومٍ من الهَوْلِ مظلمِ
ولو يستطيعُ المسلمون لقسَّموا لك الشطرَ من أعمارهم غير نُدَّمِ
فعِشْتَ به ما حج لِلّه راكبٌ مُغِذٌّ مُطيفٌ بالمقام وزمزمِ
فأربحْ بها من صفقةٍ لمُبايعٍ وأعظم بها أعظم به ثم أعظم

• • •

(*) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر من خزاعة كان راوية لجميل بن معمر العذري ، نزل المدينة ، وتغزّل بعزّة وبها عُرف ، مدح المختار ومحمد بن الحنفية وهجا عبد الله بن الزبير ، ثم لحق مع ابن الحنفية بعبد الملك بن مروان ومن هنا بدأت صلة كثيرّ بالأمويين فمدح عبد الملك وأخاه عبد العزيز ، وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مديحه لبني أمية .

(1) الهلوك : المرأة تشغف بالرِّجال .

(2) المدوف : المخلوط . السمام : جمع سم .

مالك بن الرَّيب التميمي(*)

« قصيدة يرثي بها نفسه »

ألا ليتَ شِعْري هَلْ أبيتنَّ ليلةً ... بَجنْبِ الغَضَى أُزجي القِلاصَ النَّواجيا(1)

فَلَيْتَ الغَضَى لم يقطعِ الركبُ عَرْضَهُ ... ولَيْتَ الغَضَى ماشى الرِّكابَ لياليا(2)

لَقَدْ كانَ في أهلِ الغَضَى لو دَنا الغضى ... مزارٌ ، ولكنَّ الغضى ليسَ دانيا

أَلَمْ تَرَني بعْتُ الضَّلالَةَ بالهدى ... وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

دعاني الهوى من أهل ودّي وصُحْبَتي ... بذي الطَّبسين فالتفتُّ ورائِيا(3)

أجَبْتُ الهوى لمّا دعاني بزَفْرَةٍ ... تقنَّعْتُ منها - أن أُلامَ - رِدائيا(4)

لَعمْري لَئِنْ غالَتْ خُراسان هامتي ... لَقَدْ كنتُ عن بابَيْ خُراسان نائيا(5)

فلّلهِ دَرّي يومَ أتركُ طائعاً ... بَنّي بأعلى الرَّقْمَتَيْنِ وماليا

وَدَرُّ الظّباءِ السّانحاتِ عَشِيةً ... يُخبِّرْنَ أنيّ هالِكٌ مِن وَرائيا(6)

وَدَرُّ كبيرَيَّ الّذَيْن كِلاهُمَا ... عليَّ شفيقٌ ناصِحٌ ما ألانِيا

ودُرُّ الهوى مِنْ حيثُ يدعو صِحابَهُ ... وَدَرُّ لجاجاتي ودَرُّ انتهائيا

تذَكَّرتُ من يَبْكي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ ... سِوى السَّيْفِ والرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ باكيا

(*) شاعر إسلامي من الظرفاء الفتّاك ، اشتهر في أوائل العصر الأموي ، وهجا الحجاج ، طلبه فهرب ، وقطع الطريق مدة حتى لقيه سعيد بن عثمان بن عفان الذي استصلحه واصطحبه إلى خراسان . فكف عن الفساد وقطع الطريق ومكث في خراسان حتى مات هناك . واختلف في سبب وفاته ، فقيل : مات في غزو سعيد ، وقيل : كان ببعض الطريق ، فأراد أن يلبس خُفه ، فإذا أفعى في داخلها فلسعته . فلما أحس بالموت استلقى ثم أنشأ يقول هذه القصيدة :

(1) الغضى : شجر ينبت في الرّمل ولا يكون غضى إلاّ في رمل . أزجي : أسرق . القلاص : جمع قلوص وهي الفتيّة من الإبل . النّواحي : السّراع .

(2) الركاب : الإبل التي تحمل القوم .

(3) الطبسان : كورتان بخراسان .

(4) يقول : لما ذكرت ذلك الموضع استعبرت فاستحييتُ فتقنعْتُ بردائي لكي لا يُرى ذلك مني .

(5) الهامة : الرأس .

(6) السانحات : أي سنحت له الظباء فتطيّر منها .

وأشقَرَ خنْذيذٍ يجُرُّ عِنانَه ... إلى الماء لم يَتْرُكْ له الدَّهرُ ساقيا(1)

ولكنْ بأطْرافِ السُّمَيْنَةِ نِسْوَةٌ ... عزيزٌ عليهنَّ العشيةَ ما بيا(2)

صرَيعٌ على أيدي الرِّجالِ بقفرةٍ ... يُسَوُّون لَحْدي حَيْثُ حُمَّ قضائيا

ولمّا تراءَت عند مَرْوَ منيتي ... وَحَلَّ بها سُقمي وحانَتْ وفاتيا

أقولُ لأصحابي أرفعُوني فإنني ... يَقَرُّ بعيني أنْ سُهَيْلٌ بَداليا

ويا صاحبِيْ رَحْلي دنا الموتُ فانْزِلا ... برابيَةٍ إنّي مُقيمٌ لياليا

أقيما عليَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ ... ولا تُعجلاني قد تبينَّ ما بيا

وقوما إذا ما اسُلَّ روحي فهيِّئا ... لي السِّدْرَ والأكفانَ ثمَّ أبكياليا

ولا تَحْسُداني بارَكَ اللهُ فيكما ... من الأرْضِ ذاتِ العَرْضِ أن توسِعاليا

وخطّا بأطْرافِ الأسنةِ مَضْجَعي ... وَرُدَّا علي عينيَّ فضْلَ رِدائيا

• • •

---

(1) الخِنْذيذ : الطويل من الخيل .

(2) السمينة : موضع قريب من بلاد مازن .

الفهــرس





09